مؤنس الرزّاز

حين تستيقظ الأحلام

رواية

مؤنس الرزّاز

حين تستيقظ الأحلام

حين تستيقظ الأحلام / رواية عربية
مؤنس الرزاز / مؤلّف من الأردن
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :

لوحة الغلاف :
مارك توبي / ألمانيا
الصف الضوئي :
ساجدة العجوة ، عمّان

١

قيل – وا لله أعلم – إن كائنات مريبة كانت تطاردني وتلاحقني .

لا أدري ما الذي تريده مني بالضبط . حياتي كلها كانت عادية . لم أدخن في حياتي سيجارة .

أيام المدرسة لم أسرق من أحد زملائي قلم رصاص . حتى إنني أيام المراهقة لم أتحرش بامرأة .و لم أنتسب في حياتي إلى حزب أو جماعة أوجبهة أو حركة .

كانت حياتي هادئة . ولدت مثلما يولد أي طفل . ولادة عادية ، لم تكن قيصرية على الإطلاق ، وفي المدرسة لم أكن طالبا متفوقاً ولا كسولاً .

ليس في حياتي ما هو غريب على الإطلاق ، اللهم سوى بضع قدرات خارقة ، وكمشة " عادات " غير مألوفة .

اكتشفت أمي هذه القدرات والعادات وأنا طفل صغير ، حين قلت لها إن الكلبة لوسي سوف تموت بعد ساعه ، ثم ماتت بعد ساعه .كنت صغيراً ، اتسعت عينا أمي ، وراحت ترتعش ، وأخذت تضربني وكأن نوبة غضب جنونية قد أصابتها .وهى ما عرفت فيما بعد أنها حالة الجنون المؤقت التي تلم أحياناً بالإنسان العادي .

أنا لم أفهم لماذا تضربني بهذا العنف . لم أقتل الكلبة . ظننت أنها تشك في أنني وضعت سما للكلبة. وأقسمت أنني لم أقتلها ، وظلت تضربني بلا هوادة ولا توقف ودون أن تلتقط أنفاسها وهي تلهث ، إلى أن أقبل عمي الكبير وسأل عن الذنب الذي اقترفته . فامتقع وجهها ، وارتعشت شفتاها ، وحملتني من فورها وهرعت إلى غرفتنا كما لو أن حريقا يلاحقها .

كانت تلهث والعرق يتصبب من جبينها وأنا لا أفهم. أغلقت باب الغرفة بالمفتاح . ظننت أنها ستقتلني . وأنا أحبها ، ولا أفهم . ثم انحنت حتى صار رأسها في مستوى رأسي وقالت بلهجة حاسمة لا مجال لتأويلها:

- إسمع . هل تسمع ما يفكر به الآخرون ؟ وهل تستطيع أن تختفي متى شئت ؟

لم أفهم ماذا كانت تعني، لكن الذعر جعلني أهز رأسي بالإيجاب. فلطمت خديها. وصار وجهها أبيض مثل الطباشير، ثم هرعت إلى وسادتها فرفعتها، وإذا بي أرى قرآناً صغيراً تحتها. تناولته وعادت إلي. أمرتني أن أضع يدي على المصحف الكريم

وقالت بلهجة آمرة وقد اشتعلت عيناها بثلوج الخوف البيضاء ، "ردد من ورائي :

– أقسم بالله العظيم . أن لا أقول ما أراه ، أو أنقل ما أسمعه لأي شخص كان . فإذا حنثت .. ونكثت ، فأرجو يا الله أن تحرقني فوراً بنار لا تطفئها ماء البحار كلها . "

فأقسمت . وكدت أسألها عن معنى كلمة حنثت ونكثت ، غيْر أنَّ نظرات عينيها أرعبتني ، ولون وجهها المخطوف جعلني أخاف عليها . ظننت أنها سوف تموت ، إذ رقدت بعد ذلك على السرير ، وأخذت ترتعش من رأسها حتى أخمص قدميها ، وتنتفض بين الحين والآخر نفضة ترفعها فوق السرير نصف شبر ثم تعيدها إلى مكانها ، كأن يداً خفية جبارة ترفعها لحظة ثم تتركها . وتصببت عرقاً . انهمر العرق من جبينها ثم سال على السرير ، ثم انهمر من السرير على الأرض ، ثم جلل الأرض كلها ، ورأيت بركة من العرق تغطي أرض الغرفة ، وظل منسوب العرق يرتفع إلى أن وصل إلى ركبتي ، ثم توقف عن الارتفاع . غطت في نوم عميق. بينما جمدت أنا في مكاني ، وقد اجتاحني شعور بالذنب. لم أعرف ما هو الذنب . لكنني شعرت أنني اقترفت ذنباً عظيماً كاد يتسبب في موت أمي ، ورحت أحاول أن أفتش عن ذنب ، ولما لم أعثر رحت أخترع ذنباً حتى أعاقب نفسي . إذ كيف أعاقب نفسي دون أن أخترع الذنب ؟ واعتبرت أنني مسؤول عن موت الكلبة لأنني قلت قبل ساعة من موتها إنها ستموت . ولعل جنياً أساء فهمي، فظنني أتمنى أن تموت .. فماتت !

ومنذ ذلك اليوم ، بات عالمي العادي عـامراً بأسـرار لا أبـوح بها . فإذا سألني أحدهم ماذا تناولت على الإفطار اليـوم ؟ قلـت لـه باقتضاب : " لم أفطر " فالكذبة البيضاء أفضل من إفشـاء سـر نـوع الإفطار الذي قد يتسبب بكارثة ، مثل موت الكلبة .

◆

٢

هبة ابنة الجيران فتاة وقحة مع أنني كنت أظن أنها لطيفة . كنت أطل من وراء السور بعد أن أضع مقعداً وأصعد عليه . وكانت هي تفعل الشيء نفسه حين يكون أبوها في عمله . هبة تخاف والدها ولا تخاف أمها . أمها تحبني . كانت تعطيني قطعاً من الحلوى وأنا صغير ، وأحياناً تدعوني إلى بيتهم للعب مع هبة حين يكون أبوها غائباً . لكنني كنت أخاف أن ألعب مع هبة ، لأن ولداً من أولاد الحارة رآني ألعب معها ، وسألني لماذا ألعب مع البنات ولا ألعب مع الأولاد ؟ ثم راح وفضحني ، وفي اليوم التالي كان كل أولاد الصف قد عرفوا بالقصة وراحوا يسخرون مني .

وحين كبرنا التقيت هبة عند باب بيتهم المجاور . ابتسمت ابتسامتها المشرقة كالعادة ، وقالت إنها مشتاقة لي ومن زمان لم ترني ، وأضافت :

- تعال زرنا .

واجتازت الشارع حاملة كتبها إلى المدرسة الأهلية . أما أنا فتسمرت في مكاني ، وجمد الدم في عروقي ، فقد سمعت صوتها الباطني الذي تفكر به بصمت يقول إنني بلا رائحة ولا لون ولا طعم . كنا في الصف التوجيهي ، وكنت أحب هبة في سري . أحب صوتها بالتحديد . لذلك ، حين لا يكون في الصالة أحد كنت أتصل بهاتف بيتها . هبة ترد عادة على الهاتف . تقول :

- هالو ..

يا سلام ! وأضع السماعة مكانها فوراً كأنها أفعى ، ويدي ترتعش ، وقلبي ينتفض .

هبة ليست جميلة ، ولكنها جذابة. هي تقول ذلك . أراها تقف وراء المرآة في غرفتها وحيدة ، وتقول لنفسها بلا صوت : إنها جذابة وليست جميلة . وإنها تفضل كونها جذابة ؛ لأن ذوات الجمال الصارخ غبيات . كنت أراها وأسمعها من غرفتي ، ولا أحد يعرف أنني أراها وأسمع أفكارها سوى أنا .. والله عز وجل . وكنت أحياناً أتفرج عليها وهي تخلع ثيابها ، لترتدي ثياب النوم . لكنني أخشى من غضب السماء . فأبكي وأستغفر الله العلي العظيم.

أرفع عيني إلى صورة أبي . لا أحد هنا يتحدث عن أبي . كل ما أعرفه هو أنه قتل في ظروف غامضة حين كنت صغيراً .

ومنذ أن قتل أبي في ظروف غامضة ، ومنذ أن عرفت أمي أنني أسمع ما يفكر به الناس وأرى عبر الرؤوس والجدران . صارت

تتصرف وكأنها ملاكي الحارس . تذهب معي في الصباح إلى المدرسة . وتأتي بعد الظهر لتعود بي من المدرسة إلى البيت . والطلاب يسخرون مني . يقولون إنني مثل الأولاد الصغار ، لا أخرج من البيت ولا أذهب إلى الدكان إلا ويدي في يد أمي .

بدأت ألاحظ أن خوفها عليَّ غير عادي . بل غير طبيعي . وكان جدي وجدتي ينبهانها .

جدي يقول :

- أتركي مختار في حاله . لم يعد ولداً صغيراً . دعيه يلعب مع أولاد الحارة . لا أدري كيف سيصبح زلمة وأنت تعاملينه كطفل .

كان وجه أمي يربد ويتجهم ، وتداهمها نوبة عصبية من تلك النوبات الغريبة وتصرخ باكية :

- لا أريد أن يتدخل أحدٌ في تربية ابني .

ثم تهرع إلى غرفة نومها ، وتناديني ، فألحق بها .

إنها تراقبني على مدار الساعة . تتجسس علي . تفتش دفاتري. إنني لا أفهم أمي . ساعة تحبني حباً عارماً ، وساعة أخرى تتجسس علي . وكلما ذهبنا معاً إلى المدرسة ، أو كلما عادت بي من المدرسة إلى البيت عادت إلى اسطوانتها التي مللتها :

- إذا سمعت أو رأيت ما يفكر به غيرك بلا صوت أو ما يفعلونه وبينك وبينهم جدار ، أو حاجز ، أو حجاب .. وحكيت ذلك لأحد أحرقك الله بنار جهنم . هل تعرف ماهي نار جهنم ؟ إنها تشتعل باستمرار ، والإنسان العاق يحترق بها ، ويذوب جلده . ولكن هل تظن أنه يتخلص من النار حين يذوب جلده ؟ لا أبداً .

يطلع له جلد جديد لتحرقه نار جهنم من جديـد ، وهكـذا إلى أبـد الآبدين .

ومرة قالت لي فيما يشبه زلة اللسان ، إن أبي قتـل لأنـه رأى وسمع ما كان ينبغي أن لا يُرى ولا يُسمع ، وأنه أذاع السر . وفيمـا بعد ، بدأت أربط الخيوط المتقطعة وأصـل بعضهـا ببعـض . إذن أنـا شخص غير عادي ولهذا سماني أبـي " مختـار " . وقـد أوتيـت قـوى خارقة . لكن هذه القوى قد تكون نعمـة وقـد تكـون نقمـة . أبـي كان يتمتع بها قبلي . كان يسمع ما يفكـر بـه الآخـرون مـن عـابر السبيل إلى رئيس الوزراء هنا أو في دمشق أو في بغداد أو في مصر. يعني أنّ مجال قوته الخارقة الحيوي قادر علـى تغطيـة المشـرق العربـي بالاضافة إلى مصر . لكنه لم يتق الله فيمـا سـخرت لـه الطبيعـة مـن قدرة . فراح يذيع ويفشي ما يسمع وما يـرى . ولهـذا عوقـب مـن قبل السماء . ولكن المنفذ كان عبداً من عبيد الله .

لهذا تخاف أمي عليَّ وتحميني حماية رجل الأمن لرئيس وزراء معرض للخطر . ولعل بعض القوى الشيطانية عرفت أنـي ورثـت عـن أبـي هذه القدرة الخارقة ، فراحت تطاردني محاولـة تجنيـدي وكسبي إلى صفها ، أو .. العكس تمامـاً ، أي مطـاردتي ومحاولـة تصفيـتي . أمـا الله عز وجل فلا يمكن أن يفعل ذلك . إذ يقول : " ولا تـزر وازرة وزر أخـرى " والملائكـة لا تعـترض علـى القـوى الخارقـة . فجميـع أولياء الله الصالحين كانوا أصحاب كرامات . لكنهـا تعـترض علـى توظيف هذه القدرات في خدمة الشـر . ولعـل أبـي تسـبب مثـلاً في طلاق رجل من زوجته . فـإذا افـترضت أنـه سمعهـا تفكـر بصمـت

وتقول إن رائحة فم زوجها كريهة ، وإنه لا يغتسل كل يوم ، وإنها لا تحبه . وإنها نادمة لأنها تزوجته و لم تتزوج ابن عمها . و إذا افترضنا أن أبي قبض على ذراع صاحبه هذا وانتبذ به مكاناً قصياً وحكى له ما تفكر به زوجته . فإنه سيخرب بيتهما . وهكذا يسيء المرء الذي كرم بقدرات خارقة إلى نفسه والى العباد ، فيحول القدرة هذه من نعمة إلى نقمة . ولنفترض أن أبي أراد فعل الخير حين أفشى للزوج ما تفكر به زوجته بصمت . فهذا منكر ، لأن الإنسان الذي يتمتع بقدرة خارقة ، ينبغي أن لا يكشف عنها للناس، إلى أن تأتي العلامة . حتى الرسول ﷺ - وهو النبي المصطفى - بدأ دعوته سراً . وهو القادر ، لو شاء الله ، أن يجعل كل البشر مسلمين بين ليلة وضحاها . ولكن أين المعاناة والألم والتجارب المرة عندئذ ؟ المعاناة هي الدرب إلى الايمان الحقيقي . فبعضهم يقول أسلمنا لكن الاسلام لم يدخل قلوبهم ، لأن الايمان يحتاج إلى معاناة. وأنا أعاني . ومَنْ ذا الذي يعاني أكثر من ذلك المختار الذي يطّلع على معاناة الناس ويلتزم الصمت . لا الإشارة الخضراء لم تظهر له بعد ، فتسمح له بالعبور إلى ميدان الفعل .

◆

٣

الشارع بين الدوار الأول والدوار الثاني مزدحم . إنه وقت خروج طلاب المدارس . هذا الرجل الأصلع الذي يقف مثل (الثلاثاء) وسط الجمعة ويضع يديه في جيبيه ويدخن سيجارة وينقلها من زاوية فمه اليسرى إلى زاوية فمه اليمنى غريب الأطوار .

إنه موظف شركة إنه يقول لنفسه :

– منذ ثلاثين سنة وأنا موظف في هذه الشركة . صحيح أنني بدأت مراسلاً ثم صرت بسبب ذكائي رئيس قسم . لكن الروتين ذبحني . كل يوم ، على مدار ثلاثين سنة . من البيت إلى الشركة إلى المقهى ثم إلى البيت . بوسعي طبعاً أن أدخل إلى ملهى وأروح عن نفسي . ثمة أماكن لهو يقال إنك تستطيع قضاء ليلة حمراء فيها مثل ليالي ألف ليلة وليلة . لكن المشكلة أن عمان مدينة صغيرة . بوسعي أن أسافر إلى بيروت مثلاً . لكنني سمعت أن هذه الأماكن اندثرت

بعد الحرب الأهلية . بوسعي أن أذهب إلى تركيا ، لكن الأسعار نار، ثم ماذا يضمن أن لا يضحك زعران على ذقني ؟ مثل هذه الملاهي عامرة بالزعران النصابين والفهلويين .

مرة، سمعت أن أحدهم ذهب إلى ملهى في باريس. وطلب غانية تجلس إليه، لكنه كان حريصاً حذراً. سأل عن الأسعار وكل التفاصيل. ورغم ذلك، خرج وليس في جيبه سوى أجرة التاكسي. هذا ما كان يفكر به الرجل الأصلع وكنت أنا أسمع أفكاره الصامتة.

إن العالم غابة مزدحمة بالوحوش كما تقول أمي . إنني لا أنزل إلى قاع المدينة ، أعني السوق ، إلا عند الضرورة القصوى وفيما ندر ، وغالباً مع أمي .

في السوق ، تحت .. في البلد . وجوه معظم الناس مرعبة : ملابسهم ، روائحهم نظراتهم التي تكاد تنهش أمي وتمزقها مع أنها تجاوزت الخمسين من عمرها . كل شيء يوحي بأن فئة كبيرة منهم وحوش تتقمص أشكال بشر . أما الساحة الهاشمية ، فلا أجرؤ على دخولها ليلاً أو نهاراً . يقال إنها أخطر من حي هارلم في نيويورك. عالمي آمن.. من بيتنا إلى الدوار الأول فالثاني ثم الثالث . . وأعود. وهذا لا يعني أنني لا أرحل . لا يوجد إنسان على وجه الأرض يرتحل أكثر مني . إنني أسافر على صهوة الخيال . لكنني لا أزعم أنني صاحب كرامات مثل هؤلاء الأسياد المباركين الذين يرتحلون دون أن يتحركوا من أماكنهم . وإنما أقضي معظم وقتي أرتحل في عوالم عميقة ومع شخصيات فذة ، وأشهد أحداثاً مثيرة جداً .

خذ مثلاً الأخوة كرامازوف . لقد أقمت علاقة حميمة مع

اليوشا ، وأعجبت بغرابة أطوار ديمتري وقوته ، إلا أن علاقتي كانت فاترة مع إيفان . الحقيقة أنني دخلت عالمهم ورافقتهم قبل عدة أعوام والذاكرة تخونني الآن . لكنني لازلت أذكر تلك الفتاة الغانية، ما اسمها .. إنه على طرف لساني ، لنقل إنه " ناتاشا " فغالبية النساء الروسيات يحملن هذا الاسم . حين قدم لها ديمتري ، أم لعله، إيفان ؟ .. المهم ، حين قدم لها مبلغاً من المال لشراء موقف منها . يا سلام ! تخيل . هذه الغانية ، رفعت هامتها بكبرياء جريح وقذفت النقود إلى الموقد لتلتهمها النيران . آلاف الدنانير .. حتى أن إيفان هرع وراء الدنانير كالمجنون وحاول أن ينقذها إلى أن احترقت يداه.

مثلاً ، جارنا هذا أبو سليم . إنه لا يقرأ أبداً . إنني أقرأ أفكاره وأسمع أحاسيسه ، إنه هو الرجل الذي يمكن وصفه بأنه بلا طعم ولا رائحة ولا لون . وليس أنا . لو تعلم هبة ، كم جرحتني وظلمتني . المهم أنها ظلمتني . الجراح .. أنا منذور لها . لكنها ظلمتني بسبب جهلها . إنها تحكم على إنسان تظن أنها تعرفه ، لكنها لا تعرف عنه شيئاً . وإن بعض الظن إثم . لكن هبة امرأة معقدة جذّابة وليست جميلة ، وهي تذكرني بتلك الشخصية التي قرأت عنها في رواية وجدتها في مكتبة عمان ونسيت اسمها . المهم، أنها ليست جميلة . فتقنع نفسها بأنها جذابة . وأن الجاذبية أفضل وأرقى من الجمال . ثم تتزوج رجلاً ضريراً . وهكذا هي هبة . ستنتهي بالزواج من رجل ضرير . العيب طبعاً ليس في الضرير على الإطلاق، العيب فيها ؛ لأن صوتها جميل ، أما وجهها فبلا طعم ولا لون ولا رائحة. تكذب حين تقول إنه جذاب. صوتها هو الجذاب.

المهم أن " أبو سليم " يسخر مني . يقول :

- يا رجل .. أخرج إلى الدنيا وتفرج .. حابس نفسك في جبل عمان .

أدرت مقدرتي المطفأة لقراءة أفكاره وسماع أحاسيسه . وإذا هو رجل سطحي حيواني غرائزي . الحياة بالنسبة له إشباع شهوات. تخيل .. يا مختار أفندي ، إنه لم يسمع باسم " دي. إتش. لورنس " .

إنه لا يحلم ، تخيل . أقصد الاحلام النبيلة . لا المنامات والشهوات . الاحلام كلمة لا تليق إلا بالأحلام النبيلة . أحلم مثلاً بأن أحول البحر الميت إلى بحيرة عسل وسكر . أحلم مثلاً أن أبدل لون البحر الأبيض واسمه . الأبيض لون الموت . لماذا لا يكون بحراً أخضر ؟ ولماذا لا يكون اسمه البحر الأخضر؟ ألا يقولون إن البحر الأحمر اسمه هكذا لأنه تعرض للاغتيال ، وإن اسمه رمز للدم ؟ وإن البحر الأسود أسود لأنه يرتدي ثياب الحداد على البحر الميت ؟ وعندنا بحر ميت ! لماذا لا نسمي البحر الأبيض ، بحر العشق الأخضر؟ لابد من بحر للعشق . فهذا ميت ، وذاك قتيل أحمر ، والثالث يرتدي ثياب الحداد السوداء .

جاء أعضاء الشلة . الروائي " ميم " والروائي " هاء " والقاص " سين " والصحافي "حاء" وآخرون . إنهم يحيونني من بعيد، ولا يقتربون مني . إنني أتجنبهم . لماذا ؟ لأنهم ، وخاصة الصحافي " خاء" ، يقرأ كل صحف الصباح ، ولا يدع نشرة أنباء من لندن أو مونت كارلو إلا ويسمعها . ثم يأتي ليتحدث في

السياسة . ويبدأ كلامه بدهاء بصيغة سؤال :

- هل سمعتم تصريح نتنياهو اليوم ؟

ويجرهم كلهم إلى الحديث في السياسة . يستدرجهم بدهاء ، لأنه يعرف أنه إذا لم يستدرجهم للسياسة ، إستدرجوه إلى الأدب.. الرواية والشعر ، وهو قارئ جيد ، لكنه ليس بمستواي . إنه قارئ من وزن الذبابة بالنسبة لي . حتى الروائي " ميم " قارئ من وزن الذبابة بالنسبة لي . على صعيد القراءة السياسية بمجلات وصحف وكتب ، أعترف أن " خاء" من الوزن الثقيل وأنا من وزن الذبابة . لكننا في عصر انفجار المعلومات ، وبما أن " خاء" لا يتقن الانكليزية، ولا يقرأ " الأيكونمست " و " النيويورك تايمز " و"النيوزويك " ، فإنني سأغير رأيي، وأسحب منه لقب الوزن الثقيل، وأكتفي بمنحه وزن الريشة على صعيد قراءة الصحف والمجلات والكتب السياسية .

اليوم ، أطل المحامي " فاء". المحامي "فاء" متجهم الوجه ، ولا يضحك وجهه للرغيف السخن عادة ، فإذا ضحك زلزل المدينة كلها .

كان من أعز أصدقاء أبي . هو قال لي ذلك أكثر من مرة . إنه صديق أسامة صاحب المكتبة . يطل بين الحين والآخر . فإذا كان لاعب البيانو يعزف ، اعترض وقال مازحاً لكن دون أن يتخلى وجهه عن المهابة :

- أسكتوه .. نريد أن نحكي . إنه يزعجنا .

ويثني الأستاذ " حاء " على كلامه . المحامي " فاء" يقولها

دعابة . أما حاء فيعتقد أنه جاد . وهذا أمر ليس غريباً على حاء أبداً ، فهو من محدثي النعمة . والنعمة مصادرها ثلاثة الأراضي أو العمل في الخليج أو الفساد . وأشهد ، حتى أكون منصفاً ، إن حاء جمع ثروته من العمل في الخليج . صار من أصحاب الملايين . لكنه لا يزال يتكلم بلهجة أهل القرى . إذن ، وحسب فرويد ، يتبقى الجزء الجوهري من شخصيته متأثراً بطفولته . وطفولته فقيرة قروية . لذلك من الطبيعي أن يغض الموسيقى . خصوصاً الكلاسيكية . الموسيقى الكلاسيكية تحتاج إلى أرستقراطيين أقحاح أصلاً وفصلاً حتى يقدروها . وليس محدث نعمة . وللأسف الشديد ، معظم أرستقراطية عمان القديمة هبطت إلى مستوى الطبقة الوسطى الآن . وحالي وحال أسامة صاحب المكتبة خير مثالين على ذلك . صحيح أن أسامة وضعه أفضل ، فهو هبط إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى . لكن والده كان من أغنى أثرياء عمان في أواخر الخمسينيات وحتى مرحلة حرب النكسة . انتكس بعد النكسة .

ولأن أمثالي وأمثال أسامة يرفضون العمل في الخليج تحت وهج شمس صاهرة ، لأنهم أرستقراطيون أصليون غير مزيفين ، ولأنهم يتمتعون بأخلاق الارستقراطيين والنبلاء فيرفضون الفساد لم يبق لديهم إلا ما ترك لهم آباؤهم من أراض .

أسامة لم يفتح المكتبة ، ثم يطورها إلى مكتبة - مقهى للمثقفين والنخبة - وعلى رأسهم أنا ، لأنه يرغب في الربح ، ولكن لأنه يستمتع بالثقافة . صحيح أن المكتبة لا تخسر على ما أعتقد ، لكنها لا تربح .

أسامة يقول :

- نحن أولاد عمان الحقيقيون . نحن الذين بنينا عمان . منذ العشرينيات ، حين جاء أجدادنا من الهلال الخصيب والجزيرة العربية فتعاونوا مع العائلات الشركسية القائمة منذ القرن الماضي هنا .. بنوا عمان المعاصرة الحديثة . ومع ذلك أنظر من الذي أدار أمانة عمان الكبرى منذ زمن بعيد حتى الآن ، أنظر إلى مجلس الأمانة . معظمهم ليسوا " عمّانيون " .

فيرد عليه صديقه وزميله عضو المجلس ضاحكاً :

- ليس هناك " عمّانيين " حبيبي . هناك نابلسي يسكن في عمان . وشامي يسكن في عمان ، وكركي يسكن في عمان وهكذا..

يتجهم وجه أسامة ويرد بانفعال :

- " لست أنتظر من حضرتك شهادة أنني عمّاني أو غير عمّاني. شوارع عمان القديمة تشهد . بيتنا العريق عند الدوار الثاني يشهد .. شجرة السرو .. " فيقوم زميله ويقبله على جبينه ويطلق ضحكة مجلجلة . وأعرف أن زميله هذا متخصص في مناكفته .

المهم .. أقبل المحامي " فاء " وقال بوجهه المتجهم :

- أريد أن أخلو إليك . نتحدث على انفراد .

كان بوسعي قراءة أفكاره ومعرفة ما الذي يريد قوله . إلا أنني لم أدر طاقتي الخارقة التي أطفأتها منذ ثلاثة أيام بعد أن سمعت امرأة من حارتنا تفكر بصوت صامت وتتخيل مشهداً ، جعل كل شعرة في بدني تقف منتصبة .

أطفأت طاقتي الخارقة منذ تلك اللحظة . مثل رجل فاضل يرى منظراً معيباً فيرفع يده ويغطي عينيه تقززاً .

المهم .. أيضاً الانتظار يضاعف اللهفة فانتظرت أن يبادر . لابد أن الموضوع خطير . قال لي وهو يغمز :

- إتبعني إلى مكتبي . ولكن لا تخرج معي حتى لا نثير الفضول . أخرج أنا أولاً ، وأسعى إلى المكتب ، ثم تخرج أنت بعد ربع ساعة وتلحق بي .

وهكذا كان .

حين دخلت مكتبه المقفر ، فتح قاصة ثقيلة جداً . ثم ناولني صندوقاً صغيراً قديماً على الطراز الدمشقي العثماني القديم . أقصد الزركشة وما إلى ذلك . رمقته بعينين مستطلعتين . قال وهو يهز منكبيه :

- والدك أعطاني هذا الصندوق قبل مقتله بيومين . وقال لي أن أخبئه عندي ولا أفتحه ، ولا أدع أحداً يعرف أمره . وحين تبلغ أنت سن الرشد .. أعطيك الصندوق .

سألته وقد تفتح الذهول في وجهي مثل زهرة وحشية :

- وماذا في الصندوق ؟

رماني بنظرة ثابتة . وقال :

- أقسمت له أن لا أطّلع .. حتى أنا نفسي على محتويات الصندوق . على أن يقسم لي أن لا يكون فيه مخدرات أو متفجرات أو ما يورطني مع القانون . فأقسم وأقسمت ووعدته وأنا لا أحنث.

أغلقت باب حجرة نومي علي بالمفتاح وفتحت الصندوق

وقد أخذني الفضول كل مذهب وسلك بي كل مسلك . والعرق يتصبب مني ، لهاثي يضج في الغرفة ، وأنا أمني النفس أن تكون في الصندوق رسالة تشرح لي سر هذه القدرة الخارقة التي ورثتها عنه .

ومَنْ الذي قتله ؟ ولماذا ؟

غير أنني لم أجد سوى طاقية إخفاء . فاستيقنت أن والدي كان واحداً من اثنين : إما جني مسلم تزوج من أمي . وهذا شائع ومألوف . مما يعني أن نصفي ينتمي للجن ونصفي للإنس . أو إنه كان عبقرياً ، فسبق زمانه . واخترع هذه الطاقية القادرة على إخفاء الإنسان عن عيون البشر ، وهذا ليس عجيباً . لأن الامريكان اخترعوا مؤخراً ، كما سمعت ، طائرات ضخمة سموها الشبح . لا ترصدها العيون ولا أكثر الرادارات تطوراً . ولا بد أن يكون المبدأ أو القانون الذي توصل إليه العلماء الامريكان ، هو المبدأ أو القانون الذي اكتشفه أبي قبل عدة عقود . لكنه خاف أن يعلن عنه، فهو قانون خطير إذا وقع في يد عصابة أو جهات غير رسمية وغير مسؤولة ، أدى إلى كوارث .

ربما كان مقتل أبي له علاقة بطاقية الاخفاء التي صنعها بيديه بلا شك . فالمرء لا يعثر على طاقية إخفاء ملقاة في عرض الطريق ، أو في سلة قمامة .

◆

٤

أمي تقول إنني بحاجة إلى أصدقاء يؤنسون وحدتي . ولكن، هل يشكو قلة الأصدقاء من كان طه حسين صاحبه الدائم ؟ إنني أجلس إليه ساعة أو بعض ساعة كل يوم ، لا أقرأ له كتاباً من أجل معلومة هنا أو معلومة هناك ، وإنما لأستمتع بهذه الموسيقى اللغوية ، هذا الصوت السيمفوني الفصيح .

ثم أنقلب إلى أصدقاء آخرين مثل همنغواي ودوستويفسكي وغيرهما .

وهؤلاء هم أصدقاء الروح .

أما حاجتي لأصدقاء الغريزة (والإنسان حيوان اجتماعي وبالتالي فإن حاجته للصديق غريزية) فيلبيها إبراهيم . وإبراهيم غريب الأطوار . كل إشاعات البلد عنده . كأنه يقرأ الصحف الأسبوعية كلها ، وهي في معظمها صحف إثارة ، فيحفظ

الاشاعات عن ظهر قلب .

إنه نميمة تمشي على قدمين ، وهو ينقل على لسان وزراء أو نواب وشخصيات عامة كلاماً لايكاد الرجل يقوله إلا لزوجته أو لصديقه المقرب أو لبئر أسراره . فكأنه جالس معهم سواد الليل وبياض النهار .

والحق أنني أستودع إبراهيم ، وهو صديق العمر ، بعض أسراري وتساؤلاتي ، إلا أنني حريص كل الحرص على أن يظل - هو وغيره - بعيداً عن عوالم وأسرار قدراتي الخارقة . أحياناً أنفس له عن صدري فيما يتعلق بهبة . وأضطر إلى كذبة بيضاء من هنا وكذبة بيضاء من هناك حتى أتستر على مصدر معلوماتي الحقيقي .

منذ أيام لم أخرج من البيت . إنني أقرأ الاعمال الكاملة لطه حسين للمرة العاشرة . طبعاً الاعمال التي قرأتها عشر مرات هي الأعمال الأدبية .

رن الهاتف . فسمعت صوت هبة . كانت تريد أن تتحدث إلى أمي . طبعاً ما إن سمعت صوتها حتى أثار - كالعادة - في قلبي وجلاً وفي نفسي اضطراباً وفي أعماقي قلقاً لا أتبين أصله ، ولا سره. فقد كان فراق هذا الصوت لا يبقي لي عزماً ولا حزماً .

سألتني عن حالي . فقلت لها - وقد ارتعش صوتي - إنني في صحة جيدة وقلت إن أمي ليست في البيت . وسألتها عن أخبارها وأخبار زوجها . فقالت الحمد لله . ثم قالت بصوتها الذي يسحر الحجر قبل القلب حين ترسله على سجيته :

- سلم عليها ، وقل لها - لو سمحت - إنني اتصلت بها .

وضعت سماعة الهاتف كئيباً كاسف البال .

لا أدري لماذا يترك صوت هبة الفاتن في نفسي هذا الأثر الكئيب حين ينقطع ، ويترك أثر الاضطراب والارتباك حين أسمعه . لعلني أحبها . تساءلت .

وصارحت إبراهيم حين زارني ، بعد هاتف هبة . وكان يعرف هبة ، فشبك ساقاً على ساق وهو يجلس على المقعد المحاذي لشجرة السرو وقال بلهجة الحكيم الخبير :

- أنت لا تحب هبة ، ولا تعشق صوتها . فالرجل قد يثيره إيقاع صوت امرأة ، لكنه لا يعشقه . أنت نادم على فرصة أضعتها هل تذكر حين كنت أقول لك إن هبة تحبك ، وإنها ترسل لك إشارة رمزية ، تلو إشارة . وأنت تقول إنك تعرف . لكنك خجول. ولا تدري كيف يتحدث الناس في هذه الأمور ، وكيف يفتتحون مقدمة للحوار ، فنصحتك أن تدعوها إلى سينما الرينبو ثم تلمس يدها في عتمة الصالة . لكنك جبان .. خلصني .

انتفضت وقلت إنني كنت ولداً . فرد بلا رفق إنني كنت شاباً ناضجاً . كدت أقول له بعد أن احتقن وجهي :

- إلتمس لأخيك عذراً .

لكنه تمادى وقال :

- أعترف أنك كنت تيساً . البنت كانت ثمرة جاهزة للقطف. تناديك بنكهتها برائحتها ، وأنت ترتعد خوفاً وتصطك ساقاك جبناً .

أخذت أدير الأمر في عقلي . وقلت بلا صوت إن كلام

إبراهيم صحيح . ولكن لماذا كنت رعديداً إلى هذا الحد ؟ إنه لغز لن أجد سبيلاً إلى حله . مع أنني الآن ، أي بعد تجاوزي سن المراهقة بأعوام وأعوام ، لا أتردد في مخاطبة امرأة ، ولا يتضرج وجهي إذا غازلتها . فلماذا كنت رعديداً أيامها ؟

إعترفت لإبراهيم بأني أجد قصوراً - أحياناً - عن تفسير ما يقع لي من أحداث . فقال إبراهيم إن المسألة واضحة مثل الشمس ولا تحتاج إلى عبقرية . قال وهو ينفث سيجارته وكأنه حكيم زمانه:

- أنت شخص إنطوائي . كنت وما تزال .

سألته :

- يعني لو لم أكن انطوائياً لتزوجتها ؟

اتسعت عيناه ، وضرب كفاً بكف وقال إنه لا يتحدث عن الزواج ، وإنما عن علاقة لهو وعبث . قال :

- لكنك ، كنت دائماً جاداً ، لا تضحك للرغيف السخن ، ولا تميل إلى اللهو والمرح .

وما إن غادر إبراهيم . حتى دهمتني رغبة ملحة لا راد لها بزيارة هبة . فأوقفت سيارة أجرة أقلتني إلى منطقة عبدون الباذخة . وحين ترجلت بعيداً عن بيتها بنحو مئة خطوة . وحين تأكدت أن أحداً لا يراني ، وأن السائق ابتعد بسيارته ، وضعت طاقية الاخفاء، وسعيت نحو بيتها ، أو بالأحرى بيتهما ، فلم أر سيارة زوجها المرسيدس الشبح على الباب ، هدأ روعي قليلاً ، ودرت من خلف البيت رأيت الخادمة السيرلانكية تطعم الكلب ، ولما دخلت الخادمة

إلى المطبخ لحقت بها وتسللت على رؤوس أصابعي ، قبل أن تغلق الباب .

تحول قلبي إلى سماء مجنونة مرعدة مبرقة ممطرة عاصفة . حين رأيت فخامة الأثاث أحسست بهزيمة ضارية تسحقني سحقاً .

أعرف أن زوجها ثري ، ولكنني ما كنت أتخيل أن يكون ثرياً إلى هذه الدرجة . وحين حانت مني التفاتة ورأيتها انكمش قلبي وأحسست بقواي تخور ، فاستندت إلى الحائط ، وتمالكت نفسي . قلت : يا ولد يا مختار .. إذا تداعيت وسقطت على الأرض سمعت هبة صوت الارتطام . والنتيجة في الغالب الأعم فضيحة .

وضعت طاقية الاخفاء على رأسي وأطلقت ساقيّ للريح . وسمعت أمي تسأل إبراهيم :

- هل رأيت مختار يخرج من البيت ؟

هز رأسه نافيا وقال إنني أتحدث على الهاتف . قالت :

- لا .. لقد رأيت سماعة الهاتف مرمية على الكنبة ، بعيدة عن قاعدتها . ولا أثر له في البيت .

قال إبراهيم :

- معقول ؟ أين اختفى ؟ يعني لبس طاقية إخفاء ، أو أن الأرض انشقت وابتلعته ؟

كان المساء رمادياً هرماً ذاوياً . وأنا ألهث ، في الشوارع الجانبية وأركض ، ساعياً إلى مكتبة عمان . ولم يخطر ببالي لحظة . أن أوقف سيارة أجرة .

◆

٥

قيل – والله أعلم – إنني جلست إلى نابوكوف و كان "جانين" بطل روايته " ماري" متردداً في أن يقول لعشيقته إنه لم يعد يكترث بها ، وإنه يرغب في أن يقطع الصلة بينهما . وربما كان لذلك علاقة بتوقعه مجيء زوجته ، من روسيا إلى المنفى .

إنه يقيم في نزل للمهاجرين الروس .

حين يلتقي كلارا على مائدة العشاء في النزل تبحث " كلارا" عن موضوع لتبادل أطراف الحديث مع " جانين " فالصمت يحرجها. كلاهما جالس على مائدة الافطار ، دون أن يتبادلا حرفاً. يبدو لي أن السيد " جانين " لا يكترث بكتلة الصمت الثقيلة التي تفصل بينهما . يبدو أن كلارا فقط ، ترى كتلة الصمت الثقيل ، وتحمله على ظهرها . لذلك فهي تبحث بمشقة عن موضوع مشترك للحديث – أي موضوع – وبعد عناء تعثر على موضوع مشترك .

فتسأله :

- أعتقد أنك ستغادر النزل وتتركنا يوم السبت .. أليس كذلك ؟

فيقول لها بكآبة :

- لا أدري . صدقيني إنني لا أدري .

ويبدو لي أن السيد " جانين" يعمل ممثلاً في مسرح خيال الضوء ؛ لأنه ينهض دون أن يودع كلارا ويمشي في الطرقات ، وهو يفكر كيف أن ظله سوف ينتقل من شاشة إلى أخرى . إنه لن يعرف أبداً أي نوع من الناس سوف يتفرجون علىالأفلام التي يلعب فيها ظله دور البطولة . وسوف ينتقل الفيلم من مدينة إلى أخرى ، وهو لا يجلس مع المشاهدين في المدن المختلفة لمشاهدة ظله. ثم إنه لو جلس مع المشاهدين ، فإنهم لن يعرفوا أن هذا الجالس بينهم ، واسمه " جانين " ، هو صاحب الظل ، أي بطل الفيلم .

وحين عاد إلى النزل ودخل غرفته ، ورقد على سريره ، أصغى إلى صوت القطارات تمر فيهتز النزل هزات هينة بين قطار وآخر . فكر جانين أن هذه القطارات تعبر هذا النزل الذي يقيم فيه سبعة من المهاجرين الروس الذين فقدوا ظلالهم . بدت له الحياة أشبه ما تكون بشريط سينمائي حيث لا يدري الممثلون الثانويون الفائضون شيئاً عن الفيلم الذين شاركوا فيه . فقد لعبوا دوراً عابراً في مقطع صغير منه ، ثم ابتعدوا . إنهم لا يدرون عن مصير الفيلم ، ولا قصته الكاملة .

الأرق ينهش عيني جانين . بدا له أن كل كوابيس الدنيا مختبئة في وسادة سريره .

طبعاً - كالعادة - لم أكمل الرواية حتى النهاية ، لأن من يجلس مع ثلاثة آلاف عبقري لا يستطيع أن يبدد وقته على كل واحد منهم . علي أن أفعل مثل إحدى شخصيات طه حسين فأوزع عليهم اهتمامي بالقسط حيناً وبغير القسط أحياناً . لكن المرأة التي يتحدث عنها طه حسين توزع ابتساماتها ونظراتها على ضيوفها بالقسط حيناً وبغير القسط أحياناً.

يا سلام . لغة طه حسين تشبه سيمفونية لموزارت .

أتقلقل في مجلسي ، وأدرك أن بصلتي محروقة وأن صبري أخذ ينفد وأنني أخشى أن أموت قبل أن أجلس إلى كل هؤلاء العباقرة . فأتحول إلى جيمس جويس . أعرف أنه صعب ومعقد . ولكن ما الذي يمنع من المغامرة ، أليست الحياة الدنيا لعبا ولهوا ؟

بدا المساء الصيفي يجلل أسرار العالم وهو يضمه بين ذراعيه بطريقة غامضة . في الغرب البعيد النائي بدأت الشمس تغرب والشعشعة الأخيرة تتلكأ ، والنهار المدبر يلتفت في حنين إلى الوراء. الأيام أيضاً تهاجر ، شأنها شأن " جانين " المهاجر الروسي الذي يلعب دور ظل في فيلم . وإذا كان " جانين " يقرر كل صباح أن يودع عشيقته ويصارحها بأنه سئم منها ، ثم يتخاذل عندما يراها ، فإن النساء اليانعات الثلاث عند "جويس" جلسن على الصخور أمام البحر والشمس الغاربة .

وأنا أتفرج عليهن ، وهن لا يعرفن أنني أشاهدهن وهن لا

يشاهدني . مما يجعلني أشعر أنني في الموقع الأقوى والمهيمن في معادلة العلاقة بيني وبينهن . صحيح أن السيد جيمس جويس قد يغضب جراء إحساسي بهذا الزهو والاعتداد ، وأنني أخالف قواعد اللعبة . لكنه لحسن الحظ ميت ، رحمه الله .

بوسع خيالي الحر الجبار أن يخطف النساء الثلاث الجالسات على صخور الشاطئ . أراهن أنهن شقراوات وعيونهن زرقاء . إنه لم يصفهن بعد . ولكنني لست بحاجة لاستعارة خياله .

كانت النساء اليانعات الثلاث يتمتعن بمشهد الغروب والبحر والريح الرخية ، إنهن لا يعرفن أنني أستطيع أن أفسد كل هذه البهجة عليهن . وأتهمهن بالانتماء إلى شعب استعمر شعبي . لكن جويس إرلندي أليس كذلك ؟ المهم .. أنهن يرغبن في مناقشة قضايا نسائية ، إنهن - على ما أعتقد - يتحدثن على طريقة النميمة عن شباب يعرفونهن . يبدو أنه يصف الناس على الشاطئ . إنهم يبنون قصوراً من الرمال . أعتقد أن الشباب الثلاثة يقتتلون للسيطرة على القصر الفخم الذي بنوه على الرمال من الرمال . والفتيات يراقبن ، وكل واحدة تريد أن ينتصر صديقها .

إنهم هناك ، في تلك البلاد يصادقون الشابات والشباب . إنهم يذهبون معاً إلى دور السينما ، والمراقص ، والملاهي . ونحن نقوم بعمليات استشهادية . شاب فلسطيني عمره نحو إحدى وعشرين سنة ، مسكون بالمرارة واليأس والحرمان ، قالت الصحيفة إنه ركب حافلة اسرائيلية وفجر نفسه وفجرها . أنا ضد العنف . هذا الشاب ينبغي أن يأخذ يد صاحبةٍ له ويذهبا إلى شاطئ غزة ،

ويلعبا في الماء . لكنني لا أقدر أن اقول هذا الكلام علناً . فالشاب بطل ، وأنا لست حماراً . انا أستطيع أن أتفهمه . إنه يعيش مع أبيه وأمه وعشرةٍ من إخوانه في غرفة واحدة. والاسرائيليون يضربون عليهم طوقاً من الحصار . فأي لعب بين موج غزة ؟ لعل هذا بطر لا نستحقه . أنا أيضاً مزدحم بالمرارة ، لكن لأسباب أخرى . لنعد إلى جويس ، إنهم - حسب فهمي ولغتي الانكليزية الركيكة - يقتتلون للسيطرة على القصر الرملي . وبوسعي أن أنحاز إلى "جاكي كافري " وأنا لا أعرف أي واحدة من الفتيات صاحبته ، لكن بوسعي أن أختار له واحدة . وليضحك في عبه ويشكرني . إنني لا أحب السيطرة . الشحاذ ينبغي أن لا يضع شروطاً . لماذا عقد جويس روايته بهذه الطريقة ؟ إنها غير مترابطة ، وتعتمد التداعي ، وأنا ضائع . ضعتُ في متاهتها . ولكنني حر طليق . إنني الحر الطليق الوحيد هنا . لقد رسم جويس مصائر شخصيات هذه الرواية إلى الأبد ، وبوسع من يملك نفساً طويلاً ويتقن اللغة الانكليزية إتقان شكسبير أن يعرف بعد قراءه الروايه مصير كل شخصياتها . جويس رسم للشخصيات مصيراً محدداً . لكنه لا يقدر عليَّ أنا. لأنني لست من شخصياته ، ولا أقبل أن أكون من جماعة أحد أو من رجال أحد .

لا ، ولا حتى جمال عبد الناصر . يعني لو كان جمال عبد الناصر حياً ، وهو على وشك تحقيق أحلامنا ، وقال لي تعال وانضم لجماعتي لرفضت .على العلاقة أن تكون علاقة ند بند صحيح أننى سأنفذ أوامره بعد مناقشتها ، وأبايعه زعيماً ، لكنني

لن أقبل أن ألعب دور ما يسميه السياسي " صوت سيده " . لن أكون تابعاً لِأحد والدستور يحمي حقوقي كمواطن أردني . ولكنني أقبل أن أكون زلمة " بيتي " تلك الشابة الساحرة التي كتب عنها "دي . إتش. لورنس" يا إلهي ، وهو يصف تمردها الداخلي على حياتها الرتيبة المحافظة التقليدية ، حتى أنها تفكر – على ما فهمت – أن تهرب مع غجري مثلما فعلت أمها قبلها وهجرت والدها المحافظ الذي يحيا حياة مملة .

لو أن حظي ليس عاثراً لتعرفت على " بيتي " أيام الشباب . ولرأت أنني أجمع بين الصعلكة والتمرد من جهة والثقافة والانتماء إلى أسرة فاضلة من جهة أخرى ، عندئذ لن يكون للغجري فرصة لمنافستي ، إنني على يقين من أنها ستقع في حبي من فورها . فهي أحبت الغجري لأنه ذكرها بحياة الحقول والسفر والترحال والمنفى والتشرد – أي حياة الحرية – وهذه هي حياتي . تشرد ومنافٍ وترحال على صهوة الخيال . ثم إنني أملك ثلاثة دونمات في تلاع العلي بعمّان تساوي ربع مليون دينار . بينما هذا الغجري لا يستطيع أن يوفر لها وجبة ساخنة . إذن الشروط كلها متوافرة: تشرد، ومنافٍ ، ومغامرات –يكفيها الحرب الأهلية اللبنانية– أي مغامرة تذهب إلى الحد الأقصى للطاقة البشرية أكثر من الحرب اللبنانية؟ هي، ما اسمها "بيتي" تقول أن لا معنى لأي شيء في حياتها. ولعلها ترى في ترحال الغجر مغامرة ومعنى. الحرب الأهلية تضمن لها المعنى في أرقى أشكاله. توفر لها قضية تؤمن بها. وهدفاً نبيلاً تقاتل دفاعاً عنه! وتستعد للاستشهاد في سبيله! ثم عندك ماذا؟

.آه .. عندك الخطر . ألم يقل نيتشه " عش في خطر " ماذا يعني هذا الكلام ؟ إنه يعني أن الحياة إما أن تكون سلسلة مجازفات خطرة في سبيل قضية أو حلم نبيل .. أو تكون رتيبة تقليدية .

لتقارن " بيتي " بين سفرة سياحية مملة مع والدها ، وسفرة مع الغجري . مع والدها ستنزل في فنادق تشبه بعضها بعضاً ، وسوف تزور متاحف تشبه بعضها بعضاً . هذه فيها تماثيل ، وتلك فيها لوحات . ثم تأكل في مطعم همبرغر .

أما مع الغجري ، فإنها ستنام على العشب تحت سماء مترامية الأطراف . سوف يوقدان ناراً ويتدفآن. سوف يسخنان ركوة القهوة على النار . سوف يلتقيان صدفة بأناس مثيرين . وكلمة صدفة هنا مهمة . ضع تحتها خطين أحمرين ؛ لأن الرحلة كلها مرتجلة عشوائية غير مخططة . محورها الطيش والرعونة . على عكس رحلة والدها المخططة والمعدة بعناية محكمة . حيث توزع البرامج: يوم كذا نصل المدينة الفلانية . الساعة كذا نزور المتحف الفلاني .. هذه ليست مغامرة .

فإذا كان هذا أمر " بيتي " مع غجري لا يستحم ، فما بالك لو سافرت معي أنا ؟ رأسي رأس غجري ، لكن جسدي جسد أرستقراطي عريق . من أبناء عمان القديمة العريقة .

أسامة يلتفت إلى امرأة فاضلة لا تخلو من مسحة جمال . النساء هنا لا يقرأن ، لو قرأن لعشقن أمثالي . لكن مثل هذه السيدة الفاضلة تأتي إلى مكتبة عمان لتشتري بطاقة عيد ميلاد ، كي ترسلها إلى ابنتها التي تسكن معها في نفس البيت . يا للهول .

إنقطع حبل تفكيري ، وأحسست بأن رواية لورنس القصيرة " العذراء والغجري " بدأت تثير سأمي . هذه مشكلتي ، كما قال لي الطبيب . قال إنني أفتقر إلى النفس الطويل . مشوار الحياة الطويل.. أرغب في اجتيازه بلحظة خاطفة مكثفة وأختم بخير يا كريم .

حين ترهقني المطالعة العشوائية ، أو بالأحرى التوغل في عوالم مغايرة سريعة لا تبعث على الملل ، أتحول إلى تصفح الصحف . صديقي أسامة يسمح لي ما لا يسمح به لغيري . يحق للشاعر ما لا يحق لغيره . وأنا لست شاعراً ولا كاتباً . وإنما قارئ ومسافر محترف - من كتاب إلى آخر وبالتالي من عالم إلى آخر - ولكنني ضحية وغريب الأطوار . وللضحية حق لا يُعطى لغيره . كل هؤلاء المارة في الخارج لماذا لم يدفعوا الثمن المفجع الذي لم يدفعه سوى أبطال التراجيديا الاغريقية؟ هاقد جاءت " الشلة " . " هاء " الروائي الذي أمضى عشرة أعوام بالمعتقل . يلعب دور الداهية . كلما ذكر أحدهم صموده في المعتقل قال بحرج وتواضع :

- يا جماعة .. ألم يصمد أحد غيري ؟ أرجوكم ، دعونا من هذا الكلام الفاضي .

إنهم لا يدعونني للجلوس إلى طاولتهم . هذا .. " هاء" ، أخطرهم . إنه يلعب دور القديس . شاب اعتقل وهو في ربيع عمره، وقضى عشرة أعوام في السجن ، ولا يسمح لأحد بأن يجعل من هذه " الحكاية تجارة " كما يسميها حرفيا . إنه خطير . لا تنطلي هذه البراءة المصطنعة على مثلي . لا يوجد في العالم براءة مثل

هذه البراءة . إنه ، وصديقه " سين" كاتب القصة القصيرة الذي قضى خمس سنوات في السجن يلعبان دَوْرَيْ طفلين كبيرين متواضعين .

مرة ، هممت بأن أقف وأنتزع عن وجوههم الأقنعة . وأهتف :

- إنني أراقبهم . إنهم لا يعرفون علاقتي السرية مع بطلة "دي. إتش . لورنس"

◆

جلست إلى " جامع كرامات الأولياء " وعرفت منه أن جماعة من الحجاج في بعض السنين رأوا الشيخ " تقي الدين بكر الحصيني " الدمشقي الحسيني الشافعي في المدينة الشريفة ، ثم رأوه في مكة المكرمة ثم في عرفات ، يعرفونه لاينكرونه ، فلما قدموا من الحج أخبروا برؤيته معهم في تلك الأماكن الشريفة وهو في دمشق ، ما غاب عن أصحابه يوماً واحداً .

ومن كراماته : إنه لما خرج المسلمون إلى غزو جزيرة قبرص والتحم القتال ، رأى جماعة من العسكر الشيخ تقى الدين يقاتل أمام المسلمين حتى نصرهم الله تعالى ، فلما رجعوا حكوا أنهم رأوا الشيخ يقاتل أمام العسكر ، فأكد جماعة الشيخ وغيرهم من أهل البلد أنهم لم يفقدوا الشيخ يوماً واحداً ولا غاب عنهم .

استويت في مجلسي وطلبت من محمد الشاب المصري الخلوق

فنجان قهوة .شعرت بنشوة داخلية لاحدود لها .

قلت لجامع كرامات الأولياء إن الشيخ تقي الدين أبو بكر الحصيني الدمشقي الحسيني الشافعي ، الامام العلامة الورع الزاهد المحقق ، الكامل الحسيب النسيب أحد أكابر الأولياء ومشاهير الأصفياء ، حقق مالم تستطع الثورة التكنولوجية وثورة هندسة الجينات أن تحققه في الولايات الأمريكية المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وهو أن يكون المرء في غير مكان في لحظة واحدة ، فتراه يجاهد في قبرص ويصلي في المسجد الأموي في الدقيقة ذاتها .

لقد اشتريت كتاب تعليم الصلاة . سوف أعود لأتعلم الصلاة . إنني أفكر بجدية في العودة إلى حياة التقوى والورع بعد أن ضللت عنها ونسيتها . فحين كنت طفلاً ، كان جدي يأخذني إلى الجامع . وعلمني الصلاة . كان يهديني قطعة من الحلوى كلما حفظت سورة من قصار السور. وكنت أراه يظل جالساً بعد الصلاة يتمتم في استغراق . ثم يأخذ في النحيب على نحو مفاجئ .

كانت جدتي تقول إنه ينتحب خوفاً من الله عز وجل . لكن أمي كانت تقول إنه يبكي من الفرح من سعة رحمة الله سبحانه وتعالى . فترد جدتي إنه يبكي خوفاً من عقاب الله ، لأنه كان أيام شبابه طائشاً متهوراً ، فهو يبكي ندماً وخوفاً . ولكن أمي تصر على أنه يبكي فرحاً ، لأن التقرب من الله يبث في نفس الإنسان الطمأنينة والفرح .

ثم تلتفت إلى جدتي وتقول لها بلهجة لا تخلو من حدة :

– هكذا أريد أن يفهم الولد الله .

وكانت تعنيني أنـا . أنـا كنـت محـور اهتمـام جدتـي وجـدي وأمي . إذ كنا جميعاً في بيت واحد .

إنـه بيـت الحكايـات . فبعـد أن أعـود مـن مدرسـة المطـران القريبة. أجلس مع جدي فيحدثني عن حكايـات الاسـياد أصحـاب الكرامات . وحين لا أجده تأتي جدتي وتحكـي لي حكايـات عـلاء الدين والمصباح السحري ، أو الشاطر حسن وطاقية الاخفاء . أمـي كانت تقـرأ لي بالانكليزيـة وتـترجم إلى العربيـة مـن كتـب تشـارلز ديكنز .

إلا أنني كنت أحس بوحـدة وضجـر . وكـانت أسـوار بيتنـا عالية . فلا تستطيع رؤية الشارع ولا يستطيع العابر في الشارع رؤية حديقتنا أو بيتنا إلا إذا تلصص من البوابة .

كنت أسمـع أصـوات الاولاد الأشـقياء الزعـران يلعبـون كـرة القدم في الشارع . كانت أمي تقول عنهم بازدراء وامتعاض :

- أولاد شوارع .

٦

يقول الرواة :

انقلبت حياة مختار ، بعد حصوله على طاقية الاخفاء . انقلب عاليها سافلها ، وشرقها غربها، ورأسها على عقبها . اعترف مختار لأول مرة أمام إبراهيم ، أنه كان فعلاً يعيش في وحدة ساحقة وعزلة كئيبة ، ووحشة لا تطاق .

كانا يجلسان في الحديقة الصغيرة تحت شجرات السرو . وحين سأله إبراهيم عن سبب الانقلاب في حياته ، اضطر مختار إلى الكذب . قال إنه أخيراً وجد شريكة حياته ..

إمتلأ فم إبراهيم بالضحك . ونفض سيجارته على البلاط متجاهلاً صحن السجائر وسأله :

– غير معقول . كيف أخبرتها أنك تحبها دون أن يغمى عليك ؟

عقد مختار حاجبيه وقال إن رماد السيجارة مكانه صحون السجائر ، لا الأرض . فتجاهله إبراهيم الذي يعتبر أراضي الحدائق مزابل وسأله :

– ما اسمها ؟

قال مختار وهو يحاول العثور على اسم فذ :

– اسمها حياة .

أطلق ابراهيم ضحكة كادت تسقطه على ظهره . قال إن انقلاباً وقع في الكون وليس في شخص مختار . قال إن مختار الجبان الذي يخاف الحياة يجد الشجاعة للإعراب عن مشاعره لامرأة اسمها حياة ! يا سلام ! مختار الذي كان يتجنب الحياة ، يقع في غرام امرأة اسمها حياة . أي صدفة ؟

مال مختار نحو إبراهيم وهمس :

– هل تستطيع أن تدبر لي مسدساً ؟

أنكر إبراهيم ما سمعته أذناه . معقول ؟ مختار الذي داخ مرة وهو يساعد أمه في إعداد السلطة ، حين جرحت سكين المطبخ أصبعها ، فرأى الدم ينفر ، هذا المختار يريد مسدساً ؟

قال إبراهيم بين الذهول والسخرية :

– بعد قليل قد تطلب مني آخذك إلى ملهى ، وأُعرفك إلى غانية ، وربما إلى عاهرة ، وقد تطلب مني سيجارة حشيش ، وزجاجة ويسكي ، وإعداد ليلة حمراء .

مد مختار بصره إلى الأفق ، فارتطم بالجدار تنهد بطريقة أوحت لابراهيم الذي يعيش حياة فظة ، أن مختار تحول فجأة إلى شخص

خشن جلف . ويرغب في الانتقام .

ضحك إبراهيم وقال :

- كأنك ترغب في أن تمثل عليَّ فيلماً سينمائياً .. وتهين ذكائي .

إربد وجه مختار ، ومسد على شاربه الذي أطلقه بعد حصوله على طاقية الاخفاء بأيام وقال :

- أحكي معك حكي رجال .

رماه إبراهيم بنظرة حائرة . وسأله إن كان قد رأى لتوه فيلماً عنيفاً من بطولة فريد شوقي وتوفيق الدقن . قال إن المرء أحياناً يتأثر لوهلة بأجواء الفيلم الذي يراه . ويكاد يتقمص شخصياته .

حدق مختار في عيني إبراهيم بنظرة ثابتة لا تتحرك ، حتى أن إبراهيم شعر بالارتباك وأشاح بوجهه . قال بصوت متجهم :

- مختار .. الضحية الكاملة . مختار امبراطور الضحايا ورمزها الأول ، وقف على قدميه لأول مرة ، وفك أغلاله وقيوده .

مد أصابعه وراح يتأملها . قال لإبراهيم :

- مد أصابعك .. إفردها يعني .. ودعنا نقارن .

فرد إبراهيم أصابعه وقد ذهب به الظن في عقل مختار كل مذهب . قال مختار :

- أصابعي أصابع لاعب بيانو ، وأصابعك أصابع فلاح .. أليس كذلك ؟ طوى إبراهيم أصابعه ودسها في جيبه ، وقد بدأ يظن فعلاً بأن طائفاً من الجن قد مس مختار . قال مختار وهو يقف وقفة مقاتل إسبرطي :

- إبراهيم .. خذني إلى حانة .

امتقع وجه إبراهيم . وقال هامساً :

- وماذا إذا عرفت الوالدة .. ستبهدلنا .

هتف مختار بصوت تكلف أن يكون خشناً وأكد أن مختار حبيب أمه أعطاك عمره ، إختفى إلى الأبد .

سال لعاب إبراهيم على سهرة في حانة . فقال لمختار :

- على أن تعدني أن لا تقول لأمك إنني أخذتك إليها .

أصر مختار على الالمام بالحانات الشعبية ، حيث الصعاليك والسكارى والمشاكل . وأصر على أن يغيرا حانة كل نصف ساعة، حتى يتعرف على جميع حانات البلد . ليعوض ما فاته من عمره حين كان أرنباً أبيض . قال وهو يترنح من السكر :

- أنا كنت أرنباً أبيض يا ابراهيم . كل ما كنت تقوله صحيح . لا علامات فارقة في حياتي . ما قالته هبة مرة صحيح . كنت بلا طعم ولا رائحة ولا لون . وحين انضم جيلي إلى الحركات السياسية وانخرط في معترك الحياة . اختفيت خائفاً . كان مقتل أبي بشعاً . الدم يا إبراهيم مرعب . ترى شخصاً كنت تعتقد أنه أقوى رجل في البلد ، ينتفض على الأرض متخبطاً بدمه . قتلوا أبي يا إبراهيم . وأنا سوف أنتقم .

ثم مال برأسه على كتف إبراهيم وأجهش في البكاء . رفع رأسه بغتة وسط سُحب الدخان القاتمة وقال :

- مسدس .

قال إبراهيم وهو يهديء روع مختار :

- طيب .. الصباح رباح . أنت الآن سكران .

إستل مختار دفتر شيكات من جيبه وقال وهو يتناول قلماً :

- كم يساوي المسدس الجيد .. خمسة آلاف دينار ؟

سال لعاب إبراهيم . وأخذ رأسه بين يديه كأنه دخل في مهب حيرة غامضة .

جاء صوت مختار حازماً :

- ستة آلاف دينار ؟ سبعة آلاف دينار ؟ قل ..

انهارت مقاومة إبراهيم . قال إن سعر المسدسات أقل بكثير . لكن إذا كان مختار يريد مسدساً ممتازاً ، وفي مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فإن ذلك ، سوف يكلفه غالياً ؛ لأن الشراء في مثل هذه الساعة عسير وشاق .

قال مختار بصوت قاتم حازم :

- تسعة آلاف دينار ؟

سقط لسان إبراهيم من بين شفتيه ، كما يسقط لسان كلب يلهث . تردد وضرب كفاً بكف ، ثم ضرب قبضته برأسه . ثم انهار تماماً أمام الاغواء . قال :

- ستة آلاف دينار كافية .. ولولا قبضة الوقت لاشتريته لك بسعر أرخص .. ولكن ..

قاطعه مختار :

- قم .

نهضا . أوقفا سيارة تكسي . وقال إبراهيم للسائق اسم منطقة لم يسمع بها مختار من قبل . اجتازا مناطق لم تقع عليها عينا

مختار ، وعبرا شوارع موحلة وترابية ومحفرة .

اكتشف مختار أن الخمر تبعث الجرأة في النفس . فقال :

- لنقف عند بقالة أو خمارة .. ونشتر زجاجة ويسكي .

ربت إبراهيم على ساقه وقال له :

- بعدين .. بعدين .

توقفت السيارة أمام بيت متواضع . نزل إبراهيم . خرج رجل يضع كوفية حول عنقه ، ثم دخلا . غاب إبراهيم ربع ساعة، ثم عاد يحمل كيساً ، وقال لمختار :

- إنزل .

دخل مع مختار إلى بيت متواضع . فيه فرشة وتلفزيون على الأرض . قال إبراهيم :

- الرجل لا يريد شيكاً .. إنه يريد نقداً . وهذا مثل شقيقي. فلا تفضحني يا مختار . هذا هو المسدس . غداً ، تدبر النقود . لا تقل لي غيرت رأيي ، أو كنت "سكران" ونسيت .

هز مختار رأسه وقال بلهجة القبضاي :

- أنا أحكي حكي رجال .

إلتفت إبراهيم نحو الرجل الآخر . وقال له إنّه يكفل مختار شخصياً . ثم قال لمختار :

- أكتب ورقة بخط يدك ، ووقعها . حتى لا تقول لي إنك كنت "سكران" ونسيت . فكتب مختار تعهداً لا قيمة قانونية له ، وإنما قيمته أدبية بحتة ، إنه يتعهد بدفع المبلغ لإبراهيم غداً .. نقداً .

عادا إلى سيارة الأجرة . كان بيت إبراهيم على الطريق .

فقال للسائق وهو يناوله مبلغاً مجزياً :

- سأنزل هنا .. وصل الأخ إلى بيته في جبل عمان قرب المدرسة الأهلية للبنات .. شارع الرينبو ..

ثم نزل إبراهيم . دس مختار يده في الكيس الورقي فتحسس كيساً آخر من النايلون . وعندئذ تحسس المسدس ، فخفق قلبه .

قال للسائق :

- خذني إلى عبدون .

توقفت سيارة التكسي أمام بيت هبة . دفع مختار للسائق مبلغاً إضافياً ونزل . وضع طاقية الاخفاء على رأسه . لم يجد سيارة زوج هبة . دار حول البيت ، لم يجد طريقة يسيرة للدخول . كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً .

قرر مختار أن يخلع حياءه وحساباته السابقة كما يخلع المرء قميصاً مهترئاً ويرميه في الزبالة . لا يوجد شيء اسمه مجازفة محسوبة. عش في خطر ، أيها الضحية الأولى .

ضغط على الجرس . اشتعل ضوء . لم يسمع صوتاً . ثم سمع خطوات قلقة . سمع صوت هبة من وراء الباب :

- من ؟

قال :

- مختار .. جئت لأمر شديد الخطورة .

فتحت الباب ، فلم تر أحداً . أغلق مختار الباب بدفعة من يده. ثم تلفت فرأى زر الضوء . وضوءاً جانبياً صغيراً . قال لها بلهجة آمرة :

- إجلسي على تلك الكنبة .

امتقع وجه هبة ، وجمد الدم في عروقها . بسملت وقالت :

- هل مت يا مختار ؟ هل هذه روحك تخاطبني ؟ أم أنني أحلم؟

قال بصوت أسود :

- بل تحلمين .. ترين ما يراه النائم .. وتمشين في منامك ، تتحدثين في منامك هذا مجرد منام . فلا تخافي .

عاد الدم إلى وجهها المخطوف . وبدا وكأنها صدقت مختار فهدأ كلامه من روعها . قال لها :

- سأطفيء الأضواء الآن ؛ لأنني أحب صوتك فقط . وجهك جذاب . هذا ما كانت تقوله أمك وأمي والجيران . هل تعلمين ماذا يعني ذلك ؟ إنه يعني أنك لست جميلة . لماذا ؟

سألته وهي مقتنعة أنها ترى مناماً :

- لماذا يا مختار ؟

قال لها لأن صوتها امتص كل جمالها واستحوذ عليه . قال إن عيون بعض النساء تمتص جمال الوجه كله ، تحتكره . يصبح الوجه عادياً ، لكن العينين عبقريتان . تتكلمان الشعر ، تتقمصان موج البحار . يسافر من ينظر إليهما إلى عوالم جوانية ساحرة خارج حدود هذه الدنيا الدنيئة . لكن وجه هبة ، احتكر فتنتها في صوتها. لهذا أطفأت الأضواء ؛ لأرى صوتك في الظلام . أركز عليه . فلا تشوشني ملامحك العادية اليومية ، فأعزل الفذ عن العادي ، كي أراه على انفراد ، غير ملتبس .

دار مختار حول المنضدة وقد استخرج المسدس . للوهلة الأولى خاف من المسدس ، أكثر مما خافت منه هبة . فالمسدس لم يكن خفياً مثل مختار . يد مختار ترتعش خوفاً من مسدسه ، الذي لم يره قبل ذلك في حياته . بل إنه لم ير مسدساً في حياته ، سوى في الافلام السينمائية . قال لها :

- عندكم ويسكي ؟

قالت بصوت مرتعش :

- نعم .

قال :

أحضري كأساً .. خذي قداحتي لترى الطريق .

قالت إنه لم يكن يدخن . وسألته واستحلفته إن كان هذا مناماً أم حقيقة . فطمأنها . وأصر أنه مجرد منام . سألها عن زوجها. قالت إنه مسافر .

سكبت له الويسكي في الكأس بيد مرتعشة . حاول أن يتأمل أصابعها . الأصابع تحدد منبت الإنسان الطبقي . لكن ضوء الولاعة كان خفيفاً . أحضرت له الكأس . سألها إن كانت قد أحبته في حياتها . إتسعت عيناها . قالت إنها كانت طوال حياتها تفكر فيه كصديق . لم تفكر به كحبيب . كانت تفكر به كصديق يثير الشفقة . طفل رأى والده يتخبط بالدماء أمامه ، ثم اعتزل الواقع ، وانطوى على نفسه . وأصبح شاباً لا يعلق بذاكرة أحد ، لأنه بلا طعم ولا رائحة ولا لون . شأنه شأن الشبح .

مد يده في الظلام بعد أن أتى على كأسه بجرعة واحدة . قال

لها إنه يريد أن يتحسس صوتها ، كما يتحسس الرجال أجساد عشيقاتهن . قال لها :

- إحكي .

سألته :

- ماذا أحكي يا مختار ؟

قال :

- أي شيء .. أريد أن ألمس صوتك .

قالت :

- يا إلهي .. ألن ينتهي هذا الكابوس ؟

مد يده قال :

- إحكي كمان . إحكي بلا توقف ولا فواصل ولا نقط .

أخذت رأسها بين يديها ثم بدأت تعد بصوت هستيري :

- واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ..

ومختار يمد يده في الظلام ، يتحسس أنفاسها الخارجة مع ذبذبات صوتها ، ويغمض عينيه في نشوة لم يعرفها بشر من قبل .

عند الفجر رحل . مشى ومشى ومشى في ليل لا أرض له .

رأى فندقاً . دخله . صعد إلى الغرف . تنصت على باب أول غرفة فسمع شخيراً . قرع الباب بعنف . أطل رجل ذابل الوجه ذاوي العينين . بعد أن أشعل الضوء . رأى مختار سريراً آخر شاغراً في الغرفة . دنا منه وتهالك عليه . فبسمل الرجل وحوقل وعاد إلى سلطان نومه .

◆

٧

إستيقظ مختار ثقيل الرأس . حين انزلـق مـن السـرير ووقـف. دار رأسه ودارت به الغرفة ، ثم سعل ، إلتفت إليـه الرجـل الآخـر وبسمل وسأله إن كان جنياً أومأ مختـار أن نعـم . فسـأله الرجـل إن كان جنياً طيباً أو شريراً.قال إنه طيب . سأله الرجل نزيل الغرفه إن كان يريد دواء للسعال . قال مختار إنه لا يريد دواء . وإنه أفـرط في إحتساء الخمر ليلة أمس . وإنه يعاني من الغثيان .

كان نزيل الغرفة يرتدي دشداشة بيضاء . ابتسم وقال :

-عندي لك أيها الجني الخفي دواء .لكن أبعد هـذا المسـدس عن عيني ا لله يرضى عليك.

لاحظ مختار المسدس علـى السـرير . فـواراه في جيـب سـترته الداخلية . فاختفى . قال الرجل :

- شكراً. اسمع يا أخي الجني . أنا خبير في شؤون الخمر .

Twitter: @brahemGH

إذا أكثر المرء من معاقرة الخمر ذات ليلة ، وقام في اليوم التالي يعاني من الصداع والغثيان ، فلا حل سوى شعار " لايفل الحديد إلا الحديد " أي أن يعاود الشرب . ولكن دون إسراف . ألا يقول الشاعر :

- وداوها بالتي كانت هي الداء ؟

قال مختار وهو يتناول الزجاجه كلها من يد الرجل . أما "كاليغولا" فقال حين ماتت أخته :

" لتقطع رؤوس الذين لن يبكوها لأنها أختي . وليصلب أولئك الذين سيبكونها لأنها إلهه.. " هل تصدق إن هذا الجني الذي تراه ، والقادر على سفك الدماء ، كان مثل طفل كبير مسالم تأكل القطة عشاءه ؟

جرع مختار من فم الزجاجة . فاربد وجه الرجل ثم امتقع واصطكت ركبتاه . وقال :

- ألم تقل لي إنك جني طيب ؟ فلماذا تحكي عن قطع الرؤوس .. ومن هو كاليغولا هذا ؟

تفحص مختار أصابعه . إنها لا زالت أصابع مشروع ضحية . كيف يمكن أن تخشوشن . قال :

- كاليغولا .. امبراطور طاغية .

تلفت مختار حوله . ثم تذكر أمر المبلغ الذي يريده إبراهيم مقابل المسدس . وتذكر ما فعله مع هبة . فغادر الغرفة . وأوقف سيارة أجرة وانطلق عائداً إلى بيته .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً . فرأى أمه تقيل

وتشخز . تسلل إلى غرفته . خبأ المسدس تحت الفـراش . ثـم دخـل الحمام ، فاستحم .

◆

الكذب الأبيض . ظلال الكذب الأسود ترمي ظـلالاً رماديـة داكنة على بياض الكذب . قلت لها إنني كنت طوال الليل عنـد قـبر أبي . بين الأرواح الهائمة والأصوات السوداء ، وحفيـف الأسئلة ، ووشوشة الدهشة . تختلط بوابل الأساطير وروائـح الفلسفة القديمـة بحثاً عن أجوبة .

مررت في منام أمي استـنطقتها . كنـت قـابلاً لانتحـال قنـاع القاتل وأبحث عن جواب في خوابـي الأسـاطير ومصـابيح الفلاسـفة السحرية . وبعد استقصاء واستنطاق واستجواب وتحقيـق . ومتاهـة رموز ، وشواخص مبهمة ، ويافطات ، وأحرف من لغـات قديمـة . لغات اندثرت . وأصوات حيوانية تقتدي باللغات .

قالت إنها جنية وشـعرها أطـول مـن نهـر النيـل المسترسـل في القارة الفاحمة ، ويفوح برائحة الصندل والكافور والنرجس . وكان أبوه صياداً ، ويبحث ....

تأملت وجههـا ففوجئـت بآثـار العمـر المتقـدم علـى وجههـا وعنقها . وسألت نفسي :

– يامختار أفندي .. يعني ، أكنت تتوقع أنها عصية على الزمن أو أنها لا ينبغي أن تهرم ؟

كنت أتذكرها كما رأيتها آخر مرة قبل نحو عقد من الأعوام

يا إلهي .. لقد توغلت في العمر بسرعة استثنائية . قلت لنفسي إن هناك نوعاً من النساء يهرم بسرعة أكثر من غيره . ويقال - والله أعلم - إن معظم النساء اللواتي يجري في عروقهن دم شركسي قابلات للشيخوخة قبل غيرهن . لكن لا دم شركسياً في هبة ؟ إذن ما سر هذه التجاعيد ، كأن الزمن تحول إلى ريح علكت وجهها الجذاب ، وتعربشت حافرة الأخاديد المتصدعة في وجهها .

في تلك اللحظة ، غمرني شعور رائع بالشماتة ، بالانتصار . كأننا كنا في معركة فكسبت هي الجولة الأولى والثانية بالنقاط ، وانتصرت أنا بالضربة القاضية في الجولة الأخيرة .

كان عقربا ساعة الجدار قد لسعا الساعة الثانية ظهراً حين سمعت حشرجة في مزلاج البيت فدخل الزوج . بدا الزوج أنيقاً فخماً وسيماً ، فعاودني الاحساس بالهزيمة ، وسرعان ما سقطت معنوياتي متهالكة متخاذلة .

بدا عليه أنه في عجلة من أمره . قبلها على جبينها قبلة خاطفة ثم هرع إلى مذياع ترانزيستور صغير وفتح على نشرة أخبار إذاعة مونتي كارلو المفصلة للأنباء . قال وهو يلهث :

- الحمد لله .. لحقتها .

سألته بصوتها الفاتن :

- هل نعد طعام الغداء ؟

أومأ برأسه بالإيجاب وهو يحدق في المذياع، كأنه يصغي إلى نشرة أنباء التلفزيون !!

همست في نفسي إنه مهتم بالأخبار من زاوية أسعار البورصة

الأقل. جلسا متقابلين في صمت. التسوية السلمية في وضع حرج. إنها في عنق زجاجة بعد أمر نتنياهو بفتح نفق تحت المسجد الأقصى.

والرئيس كلينتون دعا زعماء المنطقة إلى اجتماع سريع لإنقاذ عملية السلام في واشنطن ، لكن الرئيس حسني مبارك اعتذر عن تلبية الدعوة بينما وافق الآخرون .

كانت هبة تتناول طعامها في صمت مطبق ، وهو يصغي باهتمام بالغ إلى نشرة الانباء . هنا شعرت أنني كسبت هذه الجولة، فغياب الحوار بينهما على طاولة الغداء نقطة سلبية في سجل نجاح زواجهما .

كانت تختلس إليه نظرة باردة بين الحين والآخر . بدا متوتر الأعصاب . لكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة . كان يأكل وعينه على المذياع كأنه يسمع بعينه .

بدت معرفتي بنجاح العلاقة الزوجية بينهما أو فشلها قضية مصيرية بالنسبة لي . وتوالت الجولات فكنت أخسر بعضها وأربح بعضها . إلى أن انتهت نشرة الأنباء .

بدا وكأن زوجها وقّت نهاية الطعام مع نهاية نشرة أخبار مونتي كارلو المفصلة للأنباء . قام ، تركها وحيدة على الطاولة . كان وجهها شاحباً .

سألته :

- ألن تتناول تفاحة ؟

قال إنه يرغب في أن يستحم ويقيل ، فهو لا يستغني عن

قيلولة بعد الظهر .

إعتبرت أن تركها وحيدة على الطاولة سجل نقطة لصالحي. أما اغتساله بعد الغداء فنقطة لصالح زواجهما ، لأن دخوله الحمام مؤشر على أنه رجل نظيف ، وحريص على رائحة جسده .

حين صعدت هي إلى الطابق الثاني انتبهت إلى أنها ترتدي ثوباً فضفاضاً ، لم أدر إن كان ثوب نوم ، أو ثوباً بيتياً . كان يرقد على السرير الباذخ ، رفع ذراعه وقال :

- تعالي .

قالت إنها تشعر بصداع . ألح ، قال إنه يشعر بالشوق العارم إليها . بحثت في درج خزانتها عن أقراص للصداع . وقالت إنها تعرف ماذا تعني هذه العبارة حين يقولها . وإنها تشعر بالصداع . تناولت قرصين من البنادول واختفت ، ثم عادت تحمل كوباً من الماء .

ألح ومد ذراعه مرة أخرى وقال إنه مشتاق لها . قالت وهي ترشف بقية الماء :

- دع الأمر إلى المساء ، ليس لي رغبة الآن .

صاح وقد خرج عن طوره :

- وماذا عن رغبتي أنا ؟

رمقته بنظرة باردة قالت :

- لقد تناولنا الغداء لتونا . معدتي مليئة .

قال متبرماً إنه لا يفهم ما هي العلاقة بين الغداء وممارسة الحب . سكت لحظة ثم عاد إلى الانفعال فقال إنها تقول تارة إنها

مصابة بالصداع ، ثم تقول تارة أخرى إن المانع يكمن في امتلاء معدتها . هتف بحدة :

- قولي إنك لا تستمتعين معي .. أو إنك باردة .. أو لا أدري ، لقد سئمت هذا الموضوع .

انتفضت بحدة وقالت انها سئمت هذا الموضوع أيضاً ، وإنه لا يرضى أن يفهم حساسية هذا النوع من التواصل وإنه يحتاج إلى رغبة طرفين لا رغبة طرف . وكررت ، لقد ناقشنا هذا الموضوع ألف مرة حتى سئمته .

أطلق ضحكة مريرة سوداء ، وقال :

- طبعاً .. فالحرب تحتاج إلى طرف واحد يقررها ، أما السلام فبحاجة إلى اثنين . وسلامنا منذ زمن بعيد أشبه ما يكون بالتسوية بعد نجاح بنيامين نتنياهو .

قالت وهي تغادر الغرفة بخطى عصبية :

- بالضبط . طرف يقدم كل التنازلات من جانب واحد ، وطرف يملي شروطه بغطرسة .

ضرب وسادته بالجدار وقذف شتيمة لم تسمعها هبة . ثم غمغم متسائلاً :

- ألا نهاية لهذه الاسطوانة المشروخة . وماذا يفعل طرف إذا توافرت لديه الرغبة في لحظة لم تتوافر فيها رغبة الطرف الآخر ؟

سكت لحظة . ثم ضرب الجدار بقبضته وقال :

- هذا ليس عدلاً .

(قالها بالانكليزية) .

إعتبرت أنني فزت بالجولة الأخيرة بضربة قاضية. ثم تساءلت والدهشة تأخذ رأسي نحو اليمين ثم تأخذه نحو اليسار. ولكن لماذا أشعر بالشماتة لأن زواجهما ليس كاملاً ؟ هل كنت أحبها ؟

هبطت إلى الطابق الثاني . رفعت الهاتف وراحت تتحدث مع إحدى صديقاتها . تحدثتا عن " العيب " الذي قامت به صديقة ثالثة وهن في مسبح نادي السيارات الملكي . وكنت أسمع هبة تقول:

- تخيلي .

- غير معقول .

- أرأيت ؟

- هل صدقت عينيك ؟

من الواضح أن صاحبتها على الطرف الآخر تبادر وتقود المكالمة بينما تكتفي هبة باللعب بأسلوب دفاعي . وما هي إلا لحظة حتى جلست على كنبة فأخذتني عيني فنمت .

استيقظت مرعوباً . قلت :

- ماذا لو أطلقت شخيراً ؟

كانت هبة لا تزال على الهاتف . لعلها مكالمة ثانية أو ثالثة . نزل زوجها بكامل أناقته ووسامته . وتوجه من فوره إلى الباب وقال إنه ذاهب إلى اجتماع عمل .

أشارت له بيدها محيية ، لكنها لم تودعه بكلمة إذ أنها كانت منهمكة في محادثة هاتفية عن ازدحام نادي السيارات ، وقرار النادي عدم السماح باصطحاب الضيوف قبل الساعة الثامنة مساء .

انتهزت الفرصة ، فتسللت إلى سيارة زوجها وقلت أختفي في

المقعد الخلفي . فلن أجد سيارة أجرة بسهولة الآن ولابد أنه متوجه إلى منطقة تجارية مكتظة بسيارات الأجرة . كان يبحث عن نظاراته الشمسية . قال إن هذه الخادمة اللعينة تخفي أشياءه عن عمد حتى تربكه .

وجدت باب السيارة مفتوحاً. فركبت في المقعد الخلفي . يالها من سيارة فاخرة . كنت منتعشاً ويغريني شعور بالنصر الساحق ، غير أنني لم أفهم مصدر هذا الشعور وسببه . لماذا أحس بالشماتة بها ؟ كأنني عرضت عليها الزواج ، فرفضت ثم تزوجت من رجل آخر ثري ، لكنها ليست سعيدة معه . ولكن ، من قال إنها ليست سعيدة معه ؟ مجرد عدم خضوعها لرغبته لحظة القيلولة لا يعني أنهما غير منسجمين . ثم .. المفروض أن أشعر بالسعادة لسعادة حياتها الزوجية لو كانت كذلك . فمهما يكن من أمر ، تبقى هبة ابنة جيراننا وينبغي أن أتمنى لها السعادة . ترى لماذا كل هذه الرغبة في التشفي والشماتة ؟

جاء الزوج إلى الكراج . دخل السيارة ، وانطلق باتجاه الدوار الرابع . لكنه حين وصل إلى وادي صقرة ، إنفتل في طريق لا تفضي إلى الشميساني حيث يقع مكتبه كما كنت أظن . المهم ، أنني لم أستطع تحديد اتجاهنا ، لأنني كنت شبه راقد على الجزء الخلفي من السيارة . وكأن رعبي من العثور علي لا يجعلني أشعر أن طاقية الاخفاء ضمانة كافية. بغتة، سمعت صوت كركعة صادرة عن بطن زوج هبة . ثم بدا لي أنني سمعت صوت قذيفة هوائية .

أحسست أنها أصابت أنفي . يا إلهي . جللت أنفي بكفي

فسمعته يقول بدون صوت :

- حسن . لقد وجدت حلاً منذ زمن بعيد لنظريتك الغريبة هذه . قال ماذا ، قال لا تواصل إلا حين توافر الرغبة بين الطرفين في آن واحد . يا سلام ؟ أي هراء ؟ بعد الغداء معدتك ممتلئة ، في الليل أنت تريدين وأنا مرهق من العمل . في الصباح لاوقت للتواصل ، ثم نعود إلى الحلقة الجهنمية . وليلة الجمعة نسهر مع الاصدقاء حتى وجه الصباح ، وأعود مرهقاً وقد أفرطت في الشراب. فأرقد على السرير بكامل ملابسي . منذ ثلاثة أشهر لم نتواصل . ماذا تتوقع مني ؟ أن أصرف طاقة الرغبة المحتقنة في الحمام سراً ؟ فشرت !

ثم توقفت السيارة فجأة . رفعت رأسي ، فإذا نحن في ضاحية الرشيد أمام عمارة سكنية أقرب إلى التواضع منها إلى الفخامة . نزل. فمكثت محلي لا أومئ ولا أزول . لكنني رأيت امرأة باهرة الجمال تستقبله . كانت شقتها أرضية وذات مدخل مستقل عن مدخل العمارة .

عبثت الدهشة برأسي فترنح . ثم لعب الفأر في عبي ، وتسللت الريبة إلى صدري . هبطت من السيارة وأغلقت الباب برفق . سعيت إلى باب الشقة كانت مقفلة . درت حولها ، فرأيت أن نافذة الحمام مفتوحة . تعربشت وتسلقت ثم تلفت هنا وهناك داخل الحمام . وبعد أن اطمأن قلبي دخلت متسللاً .

ضبطتهما في وضع شبه مريب . وما هي إلا دقائق حتى صار الوضع مريباً تماماً . ثم لم يعد ثمة شك في الخيانة الزوجية . طار

عقلي فرحاً . وحين أقول طار عقلي فرحاً ، فإنني أعني هذه العبارة حرفيا ؛ لأن ما فعلته بعد ذلك لا يقوم به إلا رجل فقد عقله تماماً . مجنون نقي الجنون .

عدت إلى المطبخ وتسلقت ثم قفزت خارجاً من النافذة ، وهرعت ، وقد سيطر علي وسواس لا أفهم طبيعته ، إلى أقرب بقالة في المنطقة . خلعت طاقية الاخفاء سألت البقال ذا الوجه الناعس إذا كان يسمح لي باستخدام الهاتف . فقال بامتعاض :

- نصف دينار .

الله اكبر . هذا استغلال مكشوف . لكن الهاتف هاتفه . اتصلت بهبة . أحمد ربي أنني لم أقل لها ، وأنا في تلك الحالة من الحمى ، أنني مختار . قلت إنني صديق . وأن زوجها قد تعرض إلى حادث ، وأنه موجود في الشارع الفلاني بضاحية الرشيد ، العمارة رقم كذا ، شقة رقم كذا .

أعدت الهاتف إلى مكانه . لاشك أنني كنت في حالة غير طبيعية . ربما حالة حمى . ربما حالة انفعال مبالغ فيه . لا أدري . المهم أن عقلي كان قد طار و لم يعد بعد والدليل على ذلك . إنني أعدت الطاقية إلى رأسي أمام البقال .

ظن البقال أن طائفاً من الجن أو الجنون قد ألم به ، إلتفت إلى الصبي داخل البقالة وصرخ بأعلى صوته :

- أحمد .. هل رأيت كيف اختفى الرجل فجأة ؟

كان أحمد يقف جامداً في مكانه وقد ارتج عليه واصطكت ركبتاه . غمغم :

- إنه جني .. عفريت .

بعد عشر دقائق ، وصلت هبة في سيارتها الصغيرة الأنيقة . خرجت منها ، فرأت سيارة زوجها الفارهة . توجهت إلى الشقة ذات الرقم الذي وشيت به إليها ، ودقت الجرس .

◆

٨

قيل - والله أعلم - إنـي لم أحـدث إبراهيـم عـن دوري في هذه القضية التي جرى التكتم عليها . لكنني قلـت لـه إن صديقـاً لي يسكن قرب شقة المرأة الجميلـة حكـى لي حكايـة الفضيحـة . وأنـا حكيتها لإبراهيم ؛ لأنني لم أستطع الإحتفـاظ بهـذه الحكايـة (الـتي جعلتني أشعر أنني إمبراطور العالم سراً) .

كان علي أن أفضفض . أن أتمتع بروايـة الحكايـة بـالتفصيل . حرفاً بعد حرف . مع حذف دوري من القصة كلها .

أبرقت عينا إبراهيم وقال إن الطريقة التي حكيت فيها الحكاية تشي بأنني أشعر الآن أنني انتقمت من هبة . إمتقع وجهي . سألته :

- ولماذا أنتقم من هبة ؟

شبك ساقاً على ساق كعادته وقال إن أمـي لم تحضر الشـاي بعد . ثم قال إنني لم أنـس يـوم قـالت لي إنـي رجـل بـلا طعـم ولا

رائحة ولا لون . وإنني رجل حقود ، رغم كل هـذه البراءة المزيفة التي تلوح في وجهي .

كانت علاقتي بإبراهيم غريبة . إنها تقوم على المناكفة ، والصراع والتنافر . كل منا صريح مع الآخر ، ويفتش بدقة وعناية عن عيوبه ، فإذا عثر على إيجابية ما ، تجاهلها وظل يبحث عن السلبي . لكننا كنا نعرف أن هذه هي طريقتنا الغريبة في إظهار محبتنا المتبادلة .

جاءت أمي بالشاي . كنا نجلس تحت شجرات السرو القديمة. قلت له إن آخر شخص في الدنيا يحق له أن يقول عني إنني حقود هو إبراهيم نفسه . فإبراهيم يخفي الآن مشاعر فضول ممزوجة ببهجة رعناء . إبراهيم يعشق الفضائح ، لإنها المادة الخام الأساسية للنميمة .

حتى ذلك اليوم لم يخبرني إبراهيم أنه بات يعمل مراسلاً صحفياً في إحدى صحف الإثارة الاسبوعية ، قلت إنه يعشق النميمة ، لأنها تحط من قدر الجميع . فإذا اتهمه أحدهم بالانحطاط، سوغ ذلك لنفسه : " الكل منحط هذه الأيام " . وقلت إنه امبراطور الانحطاط النبيل .

سألني عن معنى الانحطاط النبيل بلهجة رجل لم يكبر و لم يجاوز طور اللعب . ثم قال شامتاً :

– أه .. ذكرتني . مثل امبراطور الضحايا . أنت تحب تصنيف الناس والحكم عليهم. هل تعلم لماذا ؟ لأنك لا تعلم عن الحياة شيئاً. أنت تعيش في برج عاجي. تقرأ عن الحياة ولا تعيشها.

أنت تخاف الحياة أكثر مما تخاف الموت .

بدأت هجوماً مضاداً . قلت إن الناس يقولون عنه أقاويل تفيد جميعها أنه فهلوي ، ولاعب ثلاث ورقات ، وصاحب عشرين وجه. قلت له :

- إحداهن قالت عنك بالحرف إنك " موجهن " . وحين دافعت ، قالت إنك صادق وصريح معي أنا فقط . بسبب طول عمر الصداقة التي تمتد من الطفولة .

أشعل سيجارة ونفث دخانها بنشوة كأنه يستمتع بأن يكون حديث الناس حتى ولو كان مُضغة في أفواههم . ثم قال باقتضاب:

- وماذا يعنيني أن يقول الناس فيَّ الأقاويل إذا عرفت نفسي وعرفتني نفسي ؟ كان إبراهيم على استعداد للقيام بأي عمل لتسليط ضوء عليه . حتى لو كان الضوء خافتاً . إنه شمعة ذابلة تحلم بالنجومية . قال :

- يا رجل رد على أخيك . أخرج من برجك العاجي وعش الحياة . أنظر كيف صرت أنا شاعرا مشهورا . صحيح أنك ستقول، إنني من وزن الريشة ، لكن تقييمك لا يهمني . والدليل على أنني شاعر مجود ، هو رد فعل الناس حين حاولت الانتحار . لماذا تراكض الناس ليطمئنوا عليَّ ؟ لأنني أعيش بين الناس . لأنني أملك شبكة علاقات اجتماعية عنكبوتية . في هذا البلد أنت بحاجة إلى هذه العلاقات لتحمي نفسك .

قلت إن القانون هو الذي يحمي الانسان في المجتمع المدني الديموقراطي العصري . كاد ينقلب على قفاه من الضحك . كان

ينفض رماد سيجارته على بلاط الحديقة ، مع أن صحن السجائر على المنضدة إلى جانبه . قال :

- يا رجل إنزل من برجك العاجي . طه حسين وهمنغواي وطاغور .. لن يحموك إن تورطت في مشكلة هنا . إنزل إلى الحياة .

أتى على كأس الشاي بجرعة واحدة وتساءل ما الذي يحول بيني وبين الانضمام إلى حزب وقد أصبحت الأحزاب دستورية ؟ ما الذي يمنعني من الانضمام إلى نقابة ؟ لماذا لا أمارس عملاً ؟ لماذا لا تكون فعالاً في حزب أو نقابة ؟ بدل جلوسك طوال النهار . تقرأ في برجك العاجي في البيت . ثم تخرج لتتمشى في المساء . مثل شيخ متهالك متقاعد ، ليس من عمله وإنما من الحياة . قال إن الأسباب بيني وبين التجارب الحياتية مقطوعة تماماً . لذلك أنت ساذج يا أستاذ . شاطر تنظر .. تتفرج فقط .

وختم محاضرته قائلاً :

- سألوا فيلسوفاً مرة كيف تعرّف الرقص ؟ أو بماذا تعرّف الرقص ؟ فقام ورقص . بكل بساطة . أنت تحاول تعريف الرقص منذ عشرين سنة بلغة الفلسفة المعقدة . أقترح أن تحيا الحياة بدلاً من محاولة تعريفها.

سكت منتظراً مناكفتي المضادة وواصل نفض رماد سيجارته على الأرض . فكرت أن إبراهيم من أصول فلاحية فظة . لا يسعه فهم معنى الغذاء الروحي ، لأنه عاش طفولة جائعة للحم . الغذاء الروحي ترف وبطر . القراءة غذاء روحي . لكنني ، على كل حال، واصلت لعبتنا المفضلة فقمت بهجومي المضاد . قلت إنه

يزعم أنّ خبرة الحياة لا تتأتى إلا إذا نزل المرء إلى معتركها وخاصة الحياة العامة . هز رأسه موافقاً مدركاً أن هذه العبارة هي القصف التمهيدي ، الذي يبدأ بعده هجوم المشاة العنيف . قلت إن مارسيل بروست قضى معظم حياته في غرفة خاصة جراء إصابته بمرض الربو ، ومع ذلك ، فلم يكتب أحدٌ عملاً روائياً أجمل من "البحث عن الزمن الضائع" في وصف المجتمع الباريسي في مرحلة معينة . ثم إن أعظم شاعر بريطاني في هذا القرن العشرين ، هو ديلان توماس ، وديلان توماس لم يكن عضواً في قيادة حزب ، ولا نشيطاً من نشطاء نقابة . لماذا ؟ لأنه كان يقضي معظم وقته ثملاً . وماذا عن رامبو ؟ عبقريته تفتحت وهو مراهق ، وتوقف عن كتابة أعظم قصائد عرفتها اللغة الفرنسية قبل أن يبلغ الثالثة والعشرين من عمره . فأين الحياة الغنية ؟ أين معترك الحياة ؟ أين الأحزاب والنقابات من التعبير عن الحياة ؟

ثم إن الدخول إلى عالم تولستوي مثلاً ، أو الدخول إلى عالم توماس مان ، أو حتى ألف ليلة وليلة ، هو غوص ، بطريقة مغايرة ، في الحياة . وذكرته للمرة العاشرة كيف كتب طه حسين وتوفيق الحكيم عملهما " القصر المسحور " وقلت إنه دخول ، من باب التأمل والخيال ، إلى حياة شهرزاد الصاخبة .

في تلك اللحظة . رن الهاتف . ردت أمي ، فواصلت هجومي المضاد ، كنت أعرف أنه لا يسمع كلمة مما أقول ، لأن ذهنه منهمك بإعداد هجوم مضاد على هجومي المضاد .

أطلت أمي ، ونادت . قالت إن المكالمة لي .

ارتعشت يدي ، وكادت تسقط سماعة الهاتف حين سمعت صوت هبة الفاتن مضطرباً . كانت مباشرة ولهجتها توحي بأنها غير قابلة للمراوغة أو الحلول الوسط . قالت باقتضاب :

– إسمع يا مختار . أنت الذي اتصل وأخبرني عن فضيحة زوجي ، حين قلت إنه عمل حادثاً . أريد أن أراك الآن . ولا أريد لفاً ولا دوراناً . أريد معلومات . المسألة خطيرة . أرجو أن لا تتهرب من المسؤولية كعادتك . لقد تعرفت إلى صوتك . أنت الذي اتصل بي . أرجو أن لا تهرب سوف أكون في بيتكم بعد دقائق.

هربت ولجأت إلى عالم الأحلام على صهوة الخيال الواقعي ! قالت أمي إن أبي كان يبحث عن كنز مفقود مرصود يحرسه الجان. قالت إنه فتش جيوب دجلة والفرات ، مسد شعر بردى ، سواه جدائل ، مشط نهر الأردن ، تفقد كل خصلة فيه بشفتيه . تحسس الشعر الطويل المبتل المستحم المغتسل دائماً . وقالت في حلم أوضح من اليقظة ، حلم نقي لا شوائب منام فيه ولا اختلط بصحو معكر. إنها في الليل المعتم سمعت نداءه فأجبته . ذلك الصياد الباعث عن صندوق العجائب في شعر الأنهار الجعدية السمراء .

لم تكن هي التي تتحدث في نومها ، كان الصوت ينطلق من فمها وعينيها المغمضتين ، ومن بين خصلات شعرها الليلي الفاحم يتقمص نكهة الخرير . قالت إنها رأته يبحث عنها. بعد الأنهار بحث في المطر ، فتش الغيوم . غيمة غيمة . شق قطرات المطر مثل حبات الكستناء . كان يخشى أن تهرب نفسها في قطرة مطر ، مثل

حفنة مخدرات في برتقالة . كسر كل حبة مطر ، وهو يقف عارياً بلا مظلة ولا معطف . حفر في الضباب ، نبش مناجم البخار القديمة . وكنت أتحول من هيئة الماء إلى هيئة أخرى من الماء . لكنه ظل يطاردني . زرع أصابعه في الطين ، وكنت أتبخر من بين يديه . يقبض علي في حفنة من الماء بين يديه ، أتسرب من أصابعه بخاراً وضباباً ، قبض الريح . لكنه لا ييأس . يركض ورائي ، أيتها الجنية أنت لي .

أحببت الحاحه هذا . أحببت رائحة عرقه وهو يركض ورائي بخاراً ، ويستحم في نهري ، ويغسل يديه في جداول شعري . مبللة بماء العشق السحري خضعت لما كنت أخشاه وأعرض عنه .

قال إنه لا يرى وجهه واضحاً إلا في صفحة مائي . لأن وجهي كمال الصفاء ومرآة الماء . وركضت من أعماق افريقيا ، تبخرت ، طرت في سحابة ، ثم انهمرت في جدول يصب في نهر الأردن ، ناديته .. فاصطادني . وتزوجنا . أعطاني قلبه وحرارة جسده وخياله . أعطاني أصابعه وقال اصنعي بها ما تشائين . أعطيته الحكايات والأساطير القديمة والرؤى . لكنه كان يريد طاقية الإخفاء . قلت هذه لنا نحن ، للجن ، للجنيات . فلم يصدق . وراح يذرع الشوارع يقلب الأمر ويتدبره . وعاد بعد أسبوع منهمكاً بلا نوم ولا طعام ولا شراب . قال آخذ طاقية الاخفاء أخفيها لابننا . ألن يكون ابننا ابن إنسي وجنية حلا في جسد واحد؟

وترددت. خفت ، اهتزت عمّان كلها ، جبالها ترنحت . وهو

يلح ، وأنا خائفة . قلت إنني أواريها في مكان أمين فإذا اشتد عود ولدنا أعطيته إياها . ركب رأسه ، أبوك الذي جاب البحار ، ومشى ضد الموج وضد جريان الأنهار وقشر حبات المطر مثل الكستناء بحثاً عني لا يعرف الهدنة ، ولا الحلول الوسط أبداً .

وأذعنت ، ويا ليتني ما أذعنت . وخضعت ويا ليتني ما خضعت . صار يضعها على رأسه ، ويلعب مع عناصر الطبيعة ، يشاكس قوانينها الصارمة . يمتطي ظهر الليل الذي لا يحمل سوى الأحلام ، والليل لا يراه لأنه يضع طاقية الاخفاء . يقلع في طائرة من الورق ويمد ساقيه المبللتين في وجه الشمس ، الشمس الجليلة الشقراء تجفف قدميه وهي لا تبصره ولا تحسه ولا تراه ، وتحترق طائرة الورق ويسقط . كاد يموت ألف مرة . وأنا أناشده ، أقبل لحيته . أقبل جبينه : إنس طاقية الاخفاء . إنها لابننا ، وليست لك. الانسان يستفز قواعد الطبيعة إذا حصل على دروع الجن وخوذهم أو سيوفهم . وهذه خوذة الجان . هذه خوذتي . هل أخذت بنطالك مرة ؟ هل لبست قميصك الداخلي مرة ؟ فلماذا تأخذ خوذتي .. طاقيتي ؟

ثم أصابته حمى البحث عن كنز قديم . وراح يبحث ويبحث. ومثلما كان يقشر قطرات المطر مثل حبات الكستناء بحثاً عني في داخلها ، ومثلما كان يعصر الغيم مفتشاً ، ومثلما كان يمشط شعر الانهار ليعثر علي . راح يعبث بقوانين الطبيعة .

إستهزأ بقانون الجاذبية . تجاهله تماماً . صار يلعب ويلهو ، أخذ يداعب الفعل ورد الفعل ويناكفهما ، فيساويهما في الاتجاه

ويعاكسهما في المقدار . بدأ يحفر في الأراضي البعيدة ، فلا يضرب معوله في الأرض وإنما في الهواء. صار يحفر الهواء، كاد يفتح نفقاً في الفضاء ، أبوك المجنون الصعلوك الغجري البدائي هذا .

وحذرته . قلت له تولدن كما تريد . اعبث بقوانين الطبيعة كما تشاء . عد إلى رعونة مراهقتك بدلاً من أن تتقدم نحو حكمة الكهولة . إرجع صبياً طائشاً ، بدلاً من أن تمضي إلى الأمام نحو سن الرشد . عاكس قوانين الحياة كما تريد . لكن ، حذار من مشاركة آخرين معك . حذار من أن تحول هذه اللعبة المنفردة إلى لعبة جماعية . فالنواميس والطقوس والشعائر التي تضحك من ولدنتك ومن طيش مراهقتك على مضض ، سوف تتجهم إذا لعبتم جماعة ، ولن ترحم .

لكنه لم يأخذ تحذيري على محمل الجد . جمع أصحابه الصيادين وراحوا يحاولون اصطياد حيتان الكنز في بحار الأرض وأنهارها ورمالها . وكان بينهم صيادو فرص ، وصيادو رؤوس . وظن أحدهم أن أباك اصطاد الكنز من وراء ظهره ، فاصطاد هذا رأسه . وسقط ذلك العملاق الطفل المولدن الشقي يتخبط في دمائه أمام عينيك .

◆

حملت مسدسي ودفتر شيكاتي ومضيت إلى البنك سحبت عشرة آلاف دينار. كنا قد بعنا دونم أرض في منطقة شارع مكة بربع مليون دينار . أرض تجارية . وربطنا المال نعيش أنا وأمي على

فوائده .

بحثت عن إبراهيم . قال إنه فتش الدنيا عني ، وأن أمي أبلغت رجال الشرطة . حاول أن يثنيها عن عزمها . قالت مختار لا يبتعد عن البيت . القطة تأكل عشاءه . حميته طوال عمري ، بعيداً عن خطوب الدنيا . بنيت أسواراً عالية حول بيتنا ، واشتريت له الكتب والحكايات والأساطير ، كي لا يبتعد عن عيني .

مختار لا ينام في غير سريره . واتصلت بالشرطة . هربت نظراتي مثل مجموعة سجناء حفرت نفقاً وشقت الأرض وخرجت من فتحة خارج أسواره . وفر كل منهم في اتجاه . تفرقوا. تفرقت نظراتي ، انتشرت في الجهات . قلت إن الضحية مرعبة إذا مرت بها لحظة انتقام فالتقطتها وقبضت عليها وتعمدت بها ، فإذا هي تشلح وجه الضحية كما يشلح المرء قميصه .

وتضع وجه الباحث عن العدل والانتقام والعقاب .

اتسعت عينا إبراهيم . قال إن مختار فقد صوابه . هتف وهو يرتعش :

- أنت لا تبحث عن العدالة . أنت تبحث عن الانتقام . أنظر إلى وجهك في المرآة . إنه وجه قاتل طاغية مريض .

هتفت وأنا أقبض على ذراعه وأدفعه إلى الأمام : " ويل للبشرية إذا تحول الضحية إلى طاغية ، ورائحة دمه لم تمح من أنف ذاكرته بعد . "

◆

ذهبنا إلى مركز شرطة زهران . وقلت لهم إنـي سـهرت عند إبراهيم ونمت في بيته ، وضحكـت وأنـا أقـول للضـابط إنـه يعرف قلوب الأمهات . وقلقهن . وطمأنته . وابتسم ، قـال إن أمـه أيضـاً تدعو له صباح ومساء ، تخاف عليه من غدر الأشرار . وخرجت أنا وإبراهيم . وفي شارع مقفر وضعت فوهة المسـدس في رأس إبراهيـم وقلت من بين أسناني :

- كم الثمن الحقيقي لهذا المسدس يا إبراهيم ؟

ارتعش ، وتصبب عرقاً . وقال إنه لا يساوي ألف دينار لكنه من النوع الممتاز . وانه كان ثملاً حين قـال سبعة أو ستة آلاف . وضعت حذائي في قفاه ودفعته . وحين تدحـرج علـى الأرض ، ثـم نهض مثل أرنب بري وأطلق سـاقيه لـلريح ، بعـثرت بقايـا ثقـتي في الناس في تلك الريح ، فتطاير نثارها مثل غبار الخريف .

راح مختار ، يجول في الشوارع مثـل ذئـب غـير مرئـي . ويـل للعالم إذا تحول الأرنب البيتوتي إلى وحش ضار ، وليتحسس النـاس رؤوسهم ، حين تلد اليمامة حمامة ، وحين تختفي الحمامـة لتتقمـص هيئة الظمأ والانتقام . ويل للعالم ، إذا انتحلت الضحيـة الـتي تـأكل القطة عشاءها هيئة ذئب يبحث عن القطة .

◆

قرأ مختار اسم قاتل أبيـه في ذاكـرة أمّـه . وعـرف أن المحكمـة أصدرت بحقـه حكمـاً بـالاعدام خفـف إلى السـجن المؤبـد . وبعـد عشرة أعوام أفرج عنه في عفو عام .

جعل مختار يجول شوارع المدينة بحثاً عنه . سأل البقالين والسماسرة وندى الصباح ، ولظى الظهيرة . اجتاز إقليم الخريف ، وضاحية المساء ، وضاحية الاسكان وشيخوخة النهار التي تشبه شيخوخة هبة ذات الصوت الفاتن الذي لا يشيخ .

سأل الاتجاهات ، والناس والظلال والأبواب وأجراس الأبواب والهواتف .

◆

٩

لم يكن القاتل في البيت . جسده كان على السرير . لكنه تركه هناك كما يترك المرء منامته ، ودخل سلطنة المنام . كان يفاوض أحد أزلام سلطان المنام على مشاريع وأحلام .

– بوسعنا بمساعدة سلطان المنام أن نحول البحر الميت إلى بحيرة عسل وسكر . أقنعه ، قل له ، إننا سنزرع الصحراء والبادية غابات أحلام يقظة . قل له إنني خبير في الاستثمار . سنحول بادية الشام إلى بحار سراب ، فيتهافت المصطافون . سنبيع للناس سمكاً في بحار السراب هذه .

سنطعمهم جوزاً فاضياً . ونطوّق أعناقهم بآمال عريضة . ألا يستحق المنهمكون في الضجر واليأس والكآبة أحلاماً وآمالاً مثل اللؤلؤ في أعماق بحار السراب ، في بطن سمك البحر الميت .

سنبيع البلالين في مدن الملاهي . ونبيع الوجوه المستعارة

و " آيس كريم " للأطفال وأراجيح للعجائز الضجـرات . تصـور ، الملايين الذين يشكون الضجر ويجففونه عن جباههم كما يجففون العرق ، يحلمون أحلام يقظة . نبيعهم كل ما يشتهون . قصور رمال ، ووجوهاً مستعارة ، ومنامات أجمل من اليقظة ، حيث لا محرم ولا محظور .

أين السلطان ؟ خذني إليه .

أطل سلطان النوم ناهضة قامته في الفضاء ، ممتداً صدره في الأفق . وجهه أسمر وعيناه ، نهاران متوهجان .

قال إنه لا يفهم في التجارة ، وانه لا يفرق بين أوراق الشيكات وأوراق الكمبيالات . لا يعرف أن يميز بين حساب التوفير ، والحساب الجاري ، والحساب الجاري مدين . إنه لا يفهم في الاستثمار . انه يفضل الحكايات على بيع الأراضي .

قال قاتل أبي :

- سيدي ، نبتز الأغنياء بالكوابيس .

أعرض السلطان وكرر قائلاً إنه يحب الحكايات . ومرة واحدة أحب امرأة اسمها زرقاء اليمامة ، أغدق عليها أحلاماً لم يرها شاعر عبقري ، ولم يسمعها موسيقار فذ ، ولم ير أشكالها أخطر فنان عرفته البشرية . فأشاحت . كان عشقاً متأججاً من طرف واحد . قال :

- وكان أو ماكان ، لست أدري ، جنوناً اسمه جنون الحب . أو انتقام العشق . كويتها بالأرق ، فاستعصت . زرعت في رأسها الكوابيس دبابيس دبابيس . وحين تراءى لها أنها قد تغير العالم

وتغدق عليه حياة أسمى من خلال قوتي . وافقت أن تكون عشيقتي على أن تحتل سلطتي وسيادتي .

عالم سلطنة المنام ، عالم الاحلام ، يليق أن يهيم في رؤوس البشر ونفوسهم ، لكنه يتحول إلى كابوس إذا تسرب إلى الشوارع المزدحمة ، والدوائر الحكومية ، والبنوك والأسواق المالية والمدافع .

أطلقتها ، أرسلتها على سجيتها . وقعتها على عهود ومواثيق. ثم قابلتها صدفة بعد أماد خلفها دهور . فسألت :

- أما يزال في قلبك نبضة تذكرني ؟

قلت قلبي ينزف حتى اليوم . وما عصور الظلام والكوابيس التي تغمر نصف الكرة الأرضية ، سوى جراح دمي . لكنني أعض على شفتي نادماً على تعذيبك ، تاركاً إياك على سجيتك حرة طليقة في هذه الأرض الضيقة وهذا الأفق المحشور . لكنه خيارك .

قالت :

- أتمنى أمنية .. فهل تلبي ؟

ابتسمت ثم قهقهت فاستيقظ كل نائم على أرض هذا الكوكب واجماً مذعوراً معتقداً أن علامات الساعة قد دنت . قلت لها :

- إذا قلت لك ، في قلبي مكان دائم لك .. كذبت . فقلبي كله شاغر بدونك .

قالت :

- سئمت الأرض وضيق أفقها ، حولني إلى جنية ، أتوسل إليك .

تجهم وجهي . قلت :

- " ستندمين ". أصرت . قلت لها ، أنا الذي لا أستطيع أن أردّ لها أمراً :

- تكونين جنية حين أبسط سلطتي على الأرض ويتدفق الظلام فيملأ السهول والقارات والبحار والفضاء والأقطار والمدن والشوارع والغرف ورؤوس الناس . وفي الصباح ، حين تنحسر سلطتي ، تعودين إنساً .

وافقت . كان قلبي عليها . قلقي عليها فاض مثل طوفان . تناولت يدها . خطفت قبلة منها ، ناولتها طاقية إخفاء ، قلت :

- تحميك عند الخطر .

امتلأت عينا سلطان النوم بدموع لا تنهمر . كأنها نيازك وألف شهاب في ليل لا فجر له .

عاد قاتل والد مختار خائباً إلى جسده على السرير . فدخله كما يدخل المرء منامته . ثم استفاق على إحساس ضغط معدني بارد على جبهته . فتح عينيه . سأله مختار :

- قتلت أبي ؟

لاحظ مختار أن منامته متسخة . وأنه راقد بجواربه . سأله كيف يستطيع أن ينام بجوارب ؟ النوم بجوارب مثل النوم بربطة عنق. غير مريح . قال القاتل انه دفع الثمن . وراح ينتحب . أخذ رأسه بين يديه وقال :

- الله يخزي الشيطان .

سأله مختار :

- هل سافرت ؟

حك ذراعه وقال إنه سافر كثيراً . لاحظ مختار أن المنامة عند ذراعه ممزقة . وثمة حشرة لسعته هناك . فاحمر جلده . قال مختار إن حك محل اللذع يزيد الطين بلة . فتوقف الرجل عن الحك .

قال : سافرت واستمتعت ، وعرفت نساء الأرض ، الشقراوات والزنجيات ، وزنجيات شقراوات ، وتعاملت مع بنوك ودوائر حكومية.

قال إنه عرف الكثير من المغامرات ، و لم يعرف الضجر والكآبة والعزلة .

سأله مختار ان كان قد أحب .

أطلق ضحكة عصبية وقال :

- الحب للشعراء والحالمين .. أنا أحب بالساعة .

سأله :

- ما رأيك برجل لم يعرف المغامرات ؟ لم يغادر الجبل الذي ولد فيه ؟ عالمه كان حضن أمه حتى دخل الكهولة . رجل لم ير ألواناً . كأنه يعاني من عمى ألوان . لا يرى سوى الأبيض والأسود والرمادي . رجل لا طعم له ولا رائحة . ولد لم يسرق حبة تين من بستان الجيران . لم يتناول يد فتاة في عتمة السينما ، لم يحضر اجتماعاً حزبياً واحداً ، لم .. رجل لم ير امرأة عارية حقيقية إلا في أفلام فيديو . لم ير ممارسة الحب إلا في روايات غالب هلسا ونابوكوف ، وسكوت برادفيلد . هل قرأت سكوت برادفيلد ؟ حيث الجنون والهلوسة والجنس الفاجر ، والحب الرقيق ، والذئاب ،

والفتيات الصغيرات البريئات ؟

هل رأيت رجلاً يعيش في روايات ؟ أصدقاؤه أبطال روايات. أعداؤه أبطال حكايات . عشيقاته بطلات قصص قصيرة ؟ كل ما يقع له في حياته ، هو مايقع لأبطال مسرحيات يمثل أدوارهم وهو يمشي في شوارع المساء الرمادية ؟

مرت حروب وانقلابات وحروب أهلية ونكبات ، في منطقته. فلم يرها إلا على شاشة التلفزيون . لم يسمع عنها إلا من البقال .

هل أحسست في حياتك بأنك ضحية بامتياز ؟ إنه شعور لذيذ . الناس يعطفون عليك . العجائز يضممن رأسك إلى صدورهن ويذرفن دمعة . هل رأيت مُقعداً يجتاز الشارع ؟ كلٍ السيارات الفارهة والحقيرة القادمة من كل الاتجاهات تتوقف إجلالا لجرحه ، وتدعه يمر .

القاتل قال إنه جائع . وإنه تعود أن يفطر كل صباح بيضة مقلية . قال :

- عندي بيض .....

قاطعه مختار :

- وأنا أيضاً .

أطلق القاتل ضحكة عصبية. وقال إنه يتاجر هذه الأيام بالوجوه. تجارة تدر ذهباً. كثير من الناس يريدون تغيير وجوههم. حتى أنه فتح سوق خردة . ثمة من يريد بيع ماضيه، ثمة من يرغب في شراء مستقبل آخر، ثمة من يريد أن يستبدل موقفه العتيق بموقف

جديد ثمة ....

سأله مختار :

- وماذا تفعل حين يأتيك زبون بلا ماض ولا حاضر ؟

عاد الرجل يحك جلد ذراعه . قال إن كل نوافذ بيته عليها "منخل" فكيف تسللت هذه الحشرة ولدغته . ثم التفت إلى مختار وقال ضاحكاً :

- هل تعلم أنني أهيىء نفسي لتجارة الرؤوس . نعم . تجارة الوجوه صارت موضة قديمة . الكل يعمل بها . لكن تجارة الرؤوس. الأمريكان يعملون عليها في حقل هندسة الجينات . هل تحب الأمريكان ؟

أخذ مختار يذرع الغرفة . قال إنه حين يستفحل الضجر معه، وتتفاقم العزلة ، ويسأم القراءة . يشاهد أفلاماً أمريكية حتى أنه إشترى فيديو وطبقاً لاقطاً للتلفزيون . قال إنه وضعهما في غرفته . قال إنه لا يحب أن تشاركه أمه مشاهدة التلفزيون والفيديو . الأم سلطة تحرجك حين تظهر امرأة عارية على الشاشة ، أو حين تظهر في سرير رجل .

غرفتي عامرة بالأسرار . أنت لم تر غرفتي .

قال الرجل الذي قتل والد مختار إنه رآها حين كان مختار ولداً صغيراً. وإنه يذكر الألعاب المرسومة على الستائر. قال إنه أول مرة رأى حيوانات لطيفة مرسومة على الستائر. ثم استدرك قائلاً :

- لكن ، لا توجد غرفة في الدنيا ، ولا حتى الغرفة السابعة المحرمة في الحكايات ، تستودع أسراراً مثل الرأس . رأس الإنسان

تستودع أسراراً تواريها في زوايا سرية معتمة . حتى أشعة إكس ، أو الليزر ، أو الأقمار الصناعية ، عاجزة عن الوقوف على كنوزها .

في تلك اللحظة تطاير رأس الرجل إلى عشرات الشظايا . تناثرت منه آلاف الصور ، و الأصوات ، والمرايا ..

رأى مختار صورة له مع رئيس دولة عربية سابقة ، وكان يضمان بينهما امرأة لها هيئة الغانيات . ورأى في شظية المرآة بقايا "كافيار" وفلافل . رأى صورة طفل يشبه وجه الأب الذي انفجر رأسه إلى ملايين الشظايا . شم مختار رائحة عطر نساء . عطر رخيص ، عطر فاخر . أصغى إلى أصوات نساء فاجرات . إلى نشرات أخبار . إلى نحيب .

يا إلهي . هل يعرف مثل هذا الوحش النحيب ؟ جميع أصوات النحيب . كان الرجل ينتحب مرات ، مرة وهو يصغي إلى أغنية لفريد الأطرش . ومرة حين توفي ابنه بالحصبة . ومرة حين توفت زوجته في حادث سير . ومرة حين قتل صديقه ... والد مختار . والدي !

انتحب من الداخل بلا دموع . الدموع فاضت من داخل الرأس المتطاير ، وسرعان ما بدأ يرتفع منسوبها المالح في الغرفة . يا الهي .. الرجل يعرف الحزن . يعرف الندم . ثم رآه في مرآة صغيرة مثل شظية يضرب رأسه في الجدار ويسمع :

– لعن الله الضجر ..

ثم رآه يهاتف والده ويقول :

– يا رجل تعال ننزل إلى مقهى ونلعب الورق .

ورآه يعاني مـن حالـة إسـهال . ورآه يبكـي في السـجن غـير صابر ولا متجلد على الحكم المؤبد . حاول أن ينتحر ثلاث مرات . مرة استل شفرة حلاقة سربها إلى الزنزانـة وضـرب شـرايينه بقـوة . نفرت الدماء . غطت وجهه ، وجللت وجوه العسكر ، والجدران ، وكان ينشج :

- أتركوني أموت .

ومرة ربط نفسه بشرشف فراشه وحاول شـنق نفسـه . لـولا اكتشاف الحارس في اللحظة الأخيرة . والثالثـة حـين فاجـأ الحـارس فاستل مسدسه بحركـة خاطفـة ووجـه فوهتـه إلى صدغـه . لكــن المسدس كان مؤمنـاً . فتدخلـت مجموعـة مـن الحـراس ، وسـاعدت الحارس الأول على انتزاع المسدس من يده ..

◆

١٠

قال الراوي إن الرواية تنتهي بمشهدين :

(المشهد الأول) :

في مكتبة عمان . وبينما كان الأدباء يحللون الوضع السياسي، بدلاً من مناقشة قضية أدبية . حانت من مختار التفاتة ، فرأى كتاباً بعنوان " حكايات الأضداد في عالم الضاد " وراح يقرأه مشدوهاً واجماً .

لكن أسامة جاء وقطع عليه خلوته وقال :

- يعني هذا وضع غير معقول . لكل المدن عائلات عريقة . بغداد .. عائلاتها البغدادية الأصلية العريقة معروفة . دمشق أسرها العريقة لا خلاف عليها . حتى بيروت أيضاً ، لماذا يريد غير "العمّانيين " حرماننا من هذا الحق ؟ هذا ليس امتيازاً ، انه حق . أليس كذلك ؟

قبل أن ينتظر أسامة الجواب رأى الكتاب بين يدي مختار . تناوله ووضعه جانباً . قال إن هذا الكتاب ليس للبيع ولا للقراءة . إنه كتاب حكايات . والعجيب أن للكتاب نفسه حكاية غريبة .

سأله أسامة وهو يقف ويتلهف ويتقلقل في وقفته :

- هل سمعت حكايته ؟ نتر مختار رأسه نافياً . قطب أسامة ومال نحو مختار وهمس :

- إسمع .. لا تقل لي إنك مشغول . لا أحد مشغول فعلاً هنا. الجميع مشغول بأمور لو سمعها إنكليزي لما سماها شغلاً ، وإنما " ويك إند " . تعال معي .. إلى تلك الطاولة ، لأحكي حكاية كتاب " حكايات الأضداد في عالم الضاد " لأنني رأيته بأم عيني يكتب هنا . على تلك الطاولة . هل تراها ؟ لا . ليست الطاولة التي يجلس عليها الأدباء . تلك قرب البيانو التي عليها زهرية ، وفي الزهرية زهرة جميلة . هل عرف هذه الزهرة ؟ إذا كنت لا تعرف نوع هذه الزهرة فأنت لا تعرف شيئاً في هذه الدنيا .

◆

(المشهد الثاني)

كان مختار راقدا على ظهره فوق سريره ، يحدق في السقف ، لكن نظراته الخفية تتأمل عوالم ما وراء الطبيعة . كانت سيجارته في فمه وكانت يداه مشبوكتين تحت رأسه .

دخلت أمه . قالت بامتعاض إنها قالت له ألف مرة أن لا يدخن في غرفة النوم، وأن لا يرقد على السرير دون أن يخلع حذاءه.

لكن مختار لم ينزل نظراته من فوق . قالت :

- مختار .. أنا أتكلم معك .

أخرج يده من وراء رأسه وتناول السيجارة ونفض رمادها على بلاط الغرفة .

هتفت أمه وهي تضع يدها على صدرها :

- رجال الشرطة يا مختار ، إنهم قادمون . أهرب . أراهم هناك، لا زالوا يبحثون عن العنوان ، إنهم قرب المدرسة الأهلية . بوسعك أن تهرب .

لكن مختار لم يحرك ساكناً . نفث دخان سيجارته في فضاء الغرفة ونفض رمادها على البلاط .

دنت أمه من النافذة . قالت :

- انهم يقتربون .

قال بهدوء وسكينة :

- تعبت من الهرب .

تناولت طاقية الإخفاء من تحت وسادته ، وحاولت أن تضعها على رأسه . قالت :

- إختفِ إذن .

دفعها بيده دفعة رفيقة هينة . وأعاد طاقية الإخفاء إلى مكانها تحت الوسادة . وقال :

- شاغليهم قليلاً .. لعلني أغفو دقيقة أو دقيقتين !

١١

وقد اختلفت الروايات فيما فعلته (أنا) بعد أن حصلت على طاقية الاخفاء . فقد اختلطت الروايات بعضها ببعض ، وتداخلت فيما بينها ، وتصرف بعض الشهود في رواياتهم ، وغير آخرون وحوروا، وبالغ بعض المعارف وهولوا .

ففي رواية أخرى أنني لم أضع طاقية الاخفاء وأذهب إلى قاتل والدي . وإنما وضعتها وذهبت إلى هبة . وتقول هذه الرواية الثانية ، إنني حين تسللت إلى بيت هبة وجدتها تتكلم بالهاتف . رفعت الطاقية عن رأسي ، فبزغت أمام عينيها . أطلقت صرخة رعب جعلت الخادمة السيرلانكية تفزع مسرعة . أعدت طاقية الاخفاء ووضعتها على رأسي . لم تبصرني السيرلانكية .

كان قلب هبة يخفق رعباً وقد طاش لبها . فقالت لصديقتها إنها ستكلمها فيما بعد . وجاءت الخادمة السيرلانكية حاملة طاسة

الرعبة وفيها عصير ليمون . فاحتسته هبة . لكن رأسها ظل يدور ، وواصل قلبها خفقانه الشديد .

نهضت بتثاقل . سارعت الخادمة السيرلانكية وساندتها ، وارتقت الدرج القصير ببطء وأناة ، ثم رقدت على سريرها ، فتحت درج المنضدة المجاورة للسرير ، وتناولت قرص فاليوم كي يهدأ روعها . وبدأ النعاس يتسلل إلى عينيها حتى هيمن عليها سلطان النوم وقيل - والله أعلم - إنني تناولت ثلاثة اقراص من الفاليوم ، وصممت على اللحاق بها إلى سلطنة النوم . ثم إنني خرجت واضعاً طاقية الإخفاء على رأسي . ثم خلعتها حين عثرت على نفسي في الشارع . فنزعتها ، وأوقفت سيارة أجرة وعدت إلى بيتي .

فما كدت أصل سريري حتى تهالكت عليه . أخذتني عيني فنمت . وجاء في هذه الرواية أن سلطان النوم صديقي الروح بالروح - والله أعلم - وقيل إن مؤخرتينا من قوة الصداقة كانت في لباس واحد ، على ذمة الرواية الثانية . ما إن توغلت في سلطنة النوم حتى طلبت مقابلة السلطان فوراً ، وحين قيل لي من قبل حاشيته إن مقابلة السلطان مسألة معقدة ، قلت لهم إنني أعز صديق له في العالم. المهم ، أن السلطان استقبلني متهلل الأسارير بقامته الضخمة ووجهه الأسمر وعينيه النهاريتين . ثم قال بصوت قاتم :

- أهلاً بالحبيب ابن الحبيبة يا رجل ، منذ زمن طويل لم تطلبني . تنتقل في الليل إلى سلطنتي دون علمي ؟ حتى أن النسيان كاد أن يضرب بيني وبينك أستارا .

ثم اعتذر السلطان من جهل مستشاريه وأعوانه وأخوانه وأصفيائه وبطانته وثقاته وخلطائه . وقال إنهم لا يعرفون طبيعة العلاقة الحميمة التي تربط بين أمي وبينه . وبالتالي بيني وبينه . ثم أخذني من يدي ودخلنا قصره المسحور ، ولاحظت أن كل ما فيه يطيش اللب ، ويغيّب الرشد ، وينعش الذهول حتى الذبول . ويجعل تنابلة السلطان في حالة دهشة وهذيان .

المهم ، أننا جلسنا في شرفة مطلة على بحار العلوم . ابتسم السلطان والتفت إلى خدمه وقال :

- إمنعوا المكالمات وأي إزعاج فأنا أريد أن أطمئن على ابن عزيزتي وصديقتي .

وقيل - والله أعلم - إن شيئاً من الغضب أخذ يعترضني حين أشار للمرة الثانية إلى علاقته مع أمي . ويبدو أنه قرأ أفكاري . فقال بصراحة السلاطين إن أمي كانت حبه الحقيقي الأول . لكن الأقدار شاءت أن يكون الحب من طرف واحد ، أي طرفه هو . وبعد أحداث ووقائع وخطوب ، أطلقها على سجيتها ، وصار يحس تجاهها بما يحسه الصديق الحميم لصديقة حميمة . وختم قائلاً :

- والله على ما أقوله شهيد .

وقيل - والله أعلم - إنني استرخيت عندئذ في مجلسي . وحكيت للسلطان حكايتي من مبتداها إلى منتهاها .

تطاول السلطان بعنقه الضخمة فرت من عينه اليمنى نظرات فأرسل نظرات عينه اليسرى في أثرها . وأعادها إلى مكانها . وقال لي مفسراً :

– ظنت نظرات عيني اليمنى أنني سأبحث بنفسي عن هبة ، فسارعت إلى البحث . فأرسلت نظرات عيني اليسرى في أثرها لتعيدها . فسلطنتي مترامية الأطراف . ولدي من العسس والمخبرين ما يكفي للعثور على هبة في أقل من ساعة أو بعض ساعة .

ثم التفت إليه بوجهه الداكن وعينيه القمريتين . وقال وهو ينكش أنفه : إن كل شيء يبدأ صغيراً ، ثم ينمو ويكبر ويشتد عوده ويتعملق ، إلا الحزن . فالحزن يبدأ شجرة عملاقة شاهقة مرتفعة في السماء ، عريضة في الأفق . لكن الزمن كفيل بأن يتسلل إليها بلحظاته وساعاته وأيامه وأسابيعه وأعوامه . فإذا بسوس الزمن وجراثيم لحظاته قد بدأت تفعل فعلها . وتبدأ الشجرة في الاضمحلال بأناة وبطء ، إلى أن تصبح شجيرة صغيرة ضئيلة أشبه بجرح قديم . ذلك أن جرثومة النسيان تتواطأ مع الزمن كي يواصل الإنسان حياته وينسى جراحه وأحزانه .

تعال لأريك حديقتي . أترى ؟ كل الأشجار هنا تبدأ بذرة صغيرة أو شتلة ثم تنمو وتكبر . إلا أشجار الحزن . هاهي هناك . أترى تلك الأشجار التي ثمارها دموع ، وأوراقها جراح دامية حمراء، واغصانها شروخ وتصدعات . حدق فيها جيداً عن قرب ، حتى ترى كيف أنها تتضاءل مع الزمن . على عكس شجرة " الأكدنيا " أو كما يسميها بعضهم " الأسكدنيا " ، أنظر كيف تنمو وتكبر رويداً رويدا .

بغتة رأينا شهاباً يخترق الأفق . فنكش سلطان النوم أنفه وقال:

- آه ، لقد وجدوا هبة ومنامها .. تعال معي .

وبينما نحن في الطريق قال لي إنّ امرأة مثل هبة لا تحب الشاب الخجول الذي يفضل السباحة في ساقية صغيرة . إنها تحب الرجل الذي يخوض عباب البحار ، ويقدم على المغامرات والمجازفات غير المحسوبة . لقد قرأت ملفها . زوجها ثري ويعاملها بلطف ويترك لها مجالاً حيوياً واسعاً لتتحرك وحيدة بدونه . لكن علاقتهما على صعيد الغرام فاترة بل باردة . فهي توده وتحترمه وتقدره وتحبه حب الممتن لا حب العاشق . وهو منهمك بأعماله التجارية . وهي تسافر كثيراً كي تقضي على ضجرها . إذ منعها من العمل . هذا كان قيده الوحيد الذي قيدها به . قال لها إن الناس سوف يتقولون وينمون حين يعرفون أن زوجة المليونير تعمل معلمة مدرسة ، أو موظفة من الدرجة الثانية في دائرة حكومية .

إذن ، الضجر هو مدخلك السحري إلى قلبها . فما الذي تفكر فيه ، وتريد مساعدتي لتحقيقه ؟ هل تفكر في مغامرة مثيرة تخوضانها معاً فتهيمن على قلبها ؟

أدرت الأمر في عقلي وأرسلت خيالي يحلق بعيداً دون أغلال وأثقال . فلما عاد خيالي إليَّ قلت للسلطان بحماسة :

- ما رأيك أن أدعوها إلى مدينة الملاهي مثلاً ؟

بدا السلطان كئيباً كاسف البال قال لي زاجراً :

- وهل تظن مدينة الملاهي عندكم .. " ديزني لاند " ؟ هذه المرأة يا سيدي العزيز زارت " ديزني لاند " الحقيقية مرتين . إسمع ، يبدو أنك حالة ميئوس منها . دعني أفكر بالنيابة عنك ، وأساعدك .

إشتعلت عينا سلطان النوم ببريق ساطع يـأخذ الأنظـار . قـال وهو يتأبط ذراعي . هذه امرأة متعطشـة للأعمـال الخارقـة . وأنـت شاب طيب ، لكن تحمل صراحتي ، أنـت تفتقـر إلى حـب المغـامرة والمخاطرة . فلا حل سوى حـل واحـد . أن تلتقيـا في مملكـتي كـل ليلة، وأحقق أنا لكما الخوارق التي تجعلها لا ترغب في اليقظة .

كدت أطير من الفرح . بل طرت ، حقيقة مثل فراشة مغادراً انطوائي ، شالحاً خجلي وأوغلت في نوبة هستيرية من البهجة حتـى اضطررت إلى أخذ نفسي أخذاً عنيفاً كي أعيد لها شـيئاً مـن الهـدوء والاعتدال .

قال سلطان النوم :

- إذن .. فلنبدأ ، لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد .

سعينا إليها ، فإذا هي راقدة على سريرها وأمامها مسرح أشبه ما يكون بهاوية سحيقة . وكانت ترى نفسها تهوي في هذه الهاوية وهي تستغيث ، فلا مجيب ولا مغيـث ، فـرد سـلطان النـوم أصابعـه كالشبكة فتلقاها . ثم أعادها إلى القمة . أشار إليَّ فتقدمـت منهـا . قالت بدهشة :

- مختار .. أنت هنا . لا أصدق عيني . ماذا تفعل هنا ؟

قلت لها إنني نائمٌ مثلها . وإننا التقينا صدفة في سلطنة النـوم . وسألتها :

- ألا تسمعين الناس يقولون إن النوم سلطان ؟

وهذا هو صديقـي سـلطان النـوم . ابتسـم السـلطان ابتسـامة مشرقة ، فارتبكـت وارتـج عليهـا ، وانعقد لسانها . ثم قالت وهي

تتمالك نفسها أنها لم تر سلطاناً من قبل .

اعتذر لها السلطان عن منامها السابق . قال إنه كان كابوساً. وأكد إنها منذ هذه اللحظة لن ترى الكوابيس . لأن صديقة صديقه صديقته . ثم أنه أخذنا إلى المحيط الهادئ . قال إن المحيط الهادئ سمي هكذا لأنه بارد الأعصاب . فهو أكثر المحيطات تملكاً لنفسه ، وأضبطها لأمره ، وأقدرها على عواطفه وأمزجته .

ثم التفت إليها السلطان وقال :

- هل تريدين أن أجعله هائجاً مستثاراً ؟

أومأت برأسها وضحكت عيناها . طلب إليها أن تنزل ساقها في مياهه . فما إن لامس المحيط بأصابع أمواجه ملمس ساق هبة ، حتى ثارت ثائرته ، وتحول من محيط هادئ إلى محيط مراهق طاش لبه وغاب رشده . قال السلطان للمحيط :

- هذا صديقي مختار وهذه صديقته هبة .. أريدك أن تأخذهما إلى عالم مغامراتك .

انتصبت أمواج المحيط احتراماً ومهابة حين خاطبها سلطان النوم . وحين أمرها أن تأخذنا إلى عالم المغامرات ، انحنت دفعة واحدة إجلالاً وتقديراً ، ثم جثت سمعاً وطاعة . إلى هنا تنتهي الرواية الثانية . أما الرواية الثالثة فتزعم أن الرواية الثانية مبترة وغير كاملة وبالتالي فهي رواية مخلة . وتروي الرواية الثالثة رواية تضيف على الثانية ما يلي :

١٢

قيل - والله أعلم - إن سلطان المنام ودعني . ثم غمز بعينه ونكش أنفه . وما إن غاب حتى انعقد لساني ووجف قلبي ، وكدت أنهار وأبكي هاتفاً :

- لا تتركني وحيداً مع هبة والمحيط .

لكن موجة هينة رفيقة أخذتني من يدي وهدأت من روعي ، وأخذتنا إلى سمكة وديعة كبيرة ، ووشوشتها بكلمات أقرب إلى الهدير . فما هي إلا لحظة ، حتى غاصت بنا السمكة إلى أعماق المحيط ، وهناك رأينا كنوز العجائب ، وكائنات أجمل من مشهد الغروب ، وأكثر فتنة من الحدائق المعلقة أيام عزها ، وأكثر إثارة من أفلام هيتشكوك المرعبة ، ثم دخلنا في مغارة كتب عليها مملكة الشعر . وهناك رأينا القصائد مجسمة متحركة تتنفس .. كائنة .

رأينا عناقيد من السكر ، وأشياء من المستقبل ، واللذة

العفيفة، والغفله وأبواب تلعب دور آذان تتنصّت ، وعيون تتلصص، والوهم البض ، وجهة الريح ، والأب الذي كان يحلم في يقظة ابنه، والابن الذي ترك على حافة البئر وجهه وترك الكلام على حَبلِه ، ورأينا ذلك العاشق الذي ينام مبكراً لترى حبيبته منامه واضحاً ، ورأينا ضرعاً من الضروع ، يطفر في الروابي يضيع في الزروع ، وعهد التيه والحياة الضاجة البارة بأهلها ، اللاسعة بالريح والدوح المقتلع وذلك الذي يدير عينيه في ذاته ، والحب الذي يُخصِب الشتاء وهول العاصفة ، والحب الاحتلام ، والحوت الذي يرجع ضياء الشاعر الوحيد ، حيث ليالي القوم مُفَوِنَسَةٌ ، ليالٍ دوامس ، وبحار بعينين لامعتين يطل ويحتجب .

وحين خرجنا إلى سطح المحيط كنا في دوار من النشوة الخالصة النقية ، وكنا نرتعش ، فارتفعت بنا راحة الموجة نحو الشمس ، فتبخر الماء من مسامنا ورأيناه سحاباً ، ثم عدنا إلى الشاطئ . فإذا دليل تركه لنا السلطان يسأل :

– هل اكتفيتما ؟ أم تريدان المزيد ؟

وقبل أن نحرّك شفاهنا لنجيب . ناولنا قهوة ساخنة ، قال إنها عصير العشق الساخن . فما إن أتت هبة على فنجانها وأتيت على فنجاني . حتى قلنا وقد فتكت بنا النشوة العارمة وأرهقتنا :

– سنلتقي في منام الليلة القادمة .

وقبل أن نفترق . قلت لهبة :

– أريد أن أسمع صوتك الذي أعشقه قبل الصحو ..

فدنت من أذني ، ووضعت فمها عليها ، وبدأت تقول

وتقول وتقول ، حتى خارت قواي ، وكدت أتداعى منحل الساقين ، فساندني الدليل بقوة وأعادني لأقف على قدمي . وكان الفجر قد بدأ يشقشق والصباح يتهيأ ليتنفس ، فتبادلت وهبة قبلة الوداع ، وافترقنا .

وتفيد هذه الرواية ، أن لقاءاتنا الليلية السرية في سلطنة المنام تواصلت ، وتحولت مودتها نحوي إلى عشق جارف ، فما عادت تصبر على الخلاص من اليقظة المملة لتنتقل إلى سلطنة النوم . وأخبرتني بذلك ، واقترحت أن ننام خلال النهار أيضاً . وضحكنا مثل طفلين . واشترينا كميات كبيرة من الاقراص المنومة . وصرنا نقضي بياض النهار نائمين ، وسواد الليل نائمين . فلا نصحو إلا ساعة أو ساعات معدودات نأكل ونستحم ونقوم بالضروري من أعمال اليقظة الروتينية المملة ، ونعود من فورنا إلى ابتلاع أقراص النوم ، لنلتقي مجدداً في سلطنة المنام .

وقال رواة هذه الرواية - والله أعلم - إن زوج هبة بدأ يناوشه القلق جراء ساعات نومها الطويلة . وحاول أن يقنعها بالتوقف عن تناول أقراص المهدئات والمنوم . فدفعته قائلة إنها تعاني من اكتئاب حاد . كذبة بيضاء سوداء طبعاً !

وتواصلت لقاءاتنا معظم بياض النهار ، وأغلب سواد الليل . إلى أن وقعت الكارثة التي جعلت زوجها يشك ويحس غموضاً مؤلماً دفعه إلى منعها منعاً باتاً من تناول المهدئات وأقراص المنوم .

يقول أصحاب هذه الرواية إنه عاد من السفر إلى عمان ذات يوم ، ووجد سائقه في انتظاره ، فعاد من المطار إلى البيت مباشرة .

وصل البيت بين الضحى والظهيرة ، فرأى هبة نائمة كالعادة . أخذ يخلع سترته ممنياً النفس بحمام سريع ثم رقود بعد رحلة مرهقة . وبينما كان يخلع سرواله سمعها تتحدث في منامها . قالت :

- مختار .. حبيبي .. تعال نمضي إلى البحر الميت فنبعث فيه الحياة .

ثم سكتت قليلاً ، بينما جعل زوجها يحدق في وجهها مكذباً أذنيه ناسياً ساقاً داخل البنطال وأخرى خارجها . ثم بدأت تقهقه . فانخطف لونه وتساءل وقد أخذ شيئاً من الشك يشغل باله . إنها تكاد لا تضحك عادة . فهي تميل إلى الرصانة والفتور . وتعالت قهقهتها . ثم قالت :

- " مختار .. أنظر ، بعد أن استيقظ البحر الميت ، بدأ البحر الأسود يخلع ثوب الحداد ، وبدأ البحر الأحمر يجف .. إذ كان دم البحر الميت . والآن ما عاد البحر الميت ميتاً . فجف دمه ، وخلع البحر الأسود ثياب الحداد " . اختلط الأمر على زوجها . كان يعرف أن ابن جيران بيت امها اسمه مختار .

- ترى .. هل يعقل أن تحلم بهذا الرجل الهايف الصعلوك السخيف الحشرة النكرة ؟ وسرعان ما جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير حين قالت :

- لو تراك أمك.. تضعني فوق منكبيك وتركض فوق نهر الياقوت والزمرد والدمقس لما صدقت عينيها .. كفى يا مختار ..

عندئذ طار صواب زوجها ، لكنه تمالك نفسه بسرعة وقال :

- إنه مجرد منام . كيف أحاسبها على منام ؟

لكنها عادت وقالت :

- هل استمتعت بكل الكلمات المثيرة التي أودعتها في أذنك ليلة أمس ، يا مختار .. بعد أن افترقنا ، وعدنا إلى ضجر اليقظة ؟

ما إن سمع زوجها هذه العبارة حتى ذهب عنه تجلده وما اصطنعه من وقار . فقبض على ذراعي هبة وهو يصرخ :

- تحلمين بابن الجيران يا عاهرة .. وتوشوشينه بكلمات مثيرة أيضاً ؟

إنتفضت هبة مستيقظة وقد بدا عليها لالتباس والوجوم . ثم الذعر ، ثم السخط . زعقت في وجه زوجها :

- أتحاسبني على منام ؟

هتف وقد احتقن وجهه :

- وماذا يفعل الزوج حين يسمع زوجته تغازل ابن الجيران في منامها ؟

دفنت رأسها في الوسادة وقالت :

- يستشير طبيباً نفسياً .

تقدم الزوج ثائراً هائجاً ، وفتح الدرج . ثم تناول علبة أقراص النوم وعلبة أقراص المهدئات ، وسعى إلى الحمام ، ساق في البنطال والأخرى خارجه . ثم سكب كل الأقراص في المرحاض ، وهو يلهث ، ثم سحب السيفون !

١٣

قال رواة يتميزون بالموضوعية والاستقصاء إن الرواية الثانية غير دقيقة . وإن هبة كانت متنبهة لخطر الحديث أثناء النوم . لذلك، عودت نفسها على النوم على بطنها ، بحيث يكون فمها مكتوماً بالوسادة .

أما حقيقة ما حصل بعد أن صار مختار وهبة يلتقيان في سلطنة النوم . أن هبة كانت تظهر أمام زوجها الرضا (في الساعات القليلة التي يلتقيان بها) وتضمر السخط . وكانت تعلن الابتهاج وهي تسر في أعماقها الاكتئاب . فالحقيقة ، والحقيقة لها ملايين الوجوه والجوانب ، أنها بدأت تضجر من حياتها مع زوجها ، وتنتظر لقاء مختار وهي تحصي الثواني والدقائق . والواقع (والواقع أيضاً ليس واقعاً واضحاً وإنما طبقات من الوقائع المختلفة باختلاف زوايا النظر) أن زوجها لاحظ إفراطها في النوم ، لكنه لم يشك

على الاطلاق بأنها تلتقي مختار هناك . ولو وشى أحد الوشاة بقصة هذا اللقاء اليومي بين زوجته ومختار في سلطنة النوم ، لأطلق قهقهة ارتج لها البيت الفاخر ، ولظن الزوج بعقل الواشي الظنون .

لكن هبة نفسها ، باتت تلاحظ أن الافراط في النوم ترك على وجهها آثار الارهاق وآيات الاعياء . فانتفخ جفناها ، وظهرت جيوب تحت عينيها . وهبة حريصة على أن يظل وجهها جذاباً صافياً ، وأن تبقى بشرتها صافية . فاتحت هبة مختار في هذا الموضوع. وسألته إن كان يملك حلاً لهذه المسألة . قال مختار لنفسه إنه لاحظ أن سلطان النوم يخرج بحلول إبداعية للمشاكل حين ينكش أنفه . وكان مختار يستهجن نكش سلطان مهيب جليل لأنفه أمام الناس . لكن مختار حدث نفسه الآن بأن نكش الأنف طريقة لشم رائحة حلول للمشاكل والعقبات .

نكش مختار أنفه . فضربته هبة على يده وقالت بامتعاض :

- عيب .

في تلك اللحظة خطر له خاطر فيه إبداع وفيه عبقرية غير تقليدية . قال مختار إنه مستعد لزيارتها في اليقظة حين يكون زوجها خارج البيت . فإذا جاء زوجها على حين غرة . سارع إلى وضع طاقية الاخفاء على رأسه ، وهذا الحل إذا وافقت عليه هبة يقتضي إبعاد الخادمة السيرلانكية عن البيت .

أطرقت هبة ملياً ثم أضاءت عيناها وقالت إن هذا الحل عبقري. وألحت على تنفيذه من صباح اليوم التالي قائلة إن زوجها يغادر البيت حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحا .

فعلاً ، ما إن قرص العقربان الساعة الثامنة حتى كان مختار يذرع الشارع وهو غير مرئي على الاطلاق . عند الساعة التاسعة إلا ثلثاً ، شاهد الزوج يغادر الكراج بسيارته الفارهة . وما هي إلا دقائق حتى رأى الخادمة السيرلانكية تخرج من البيت وتبتعد .

طار من الفرح . واجتاز الشارع ثم قرع جرس الباب . حين فتحت الباب دخل دون أن يرفع طاقية الاخفاء وقال لها :

- دعينا نلعب لعبة طماية تخباية ، أو الاستغماية كما يسميها بعضهم .

قالت له بعتب رقيق :

- لا تناكفني .. أين أنت ؟

خلع مختار طاقية الاخفاء فتعانقا من فورهما . وقال وهو يضمها إلى صدره :

- تكلمي .. قولي أي شيء .. أريد سماع صوتك الفاتن .

لكنها لم تقل . وإنما دفعته دفعة هينة وقالت بصوت يشي بأن كلامه أزعجها بل كاد يجرحها . سألته :

- ما حكاية صوتي هذه ؟ قل لي إنها دعابة أو نكتة أو مزحة. أم أنك فعلاً تعني ما تقول ؟ وأنك فعلاً تحب صوتي دون وجهي ؟ هذا يعني أنني لست جذابة أبداً . قل إنك تمزح .

شعر مختار بخطورة الموقف وحساسيته . فقد كان صوتها يوحي بأنها متوترة ، وأنها إذا اكتشفت أن صوتها هو مفتاح حب مختار لها ، فإنها قاطعة للعلاقة بينهما لا ريب في ذلك .

امتقع وجه مختار وقال متكلفاً ابتسامة عصبية :

- يا شيخة . طبعاً أمزح . هل سمعت رجلاً يحب امرأة من باب صوتها ؟

أكد لها أن الرجال مختلفون . منهم من يرى مدخله إلى عشق امرأة معينة من جمال وجهها . ومنهم من يدخل من بوابة جاذبية وجهها أو حتى نظراتها ، ومنهم من يرى في خفة دمها أو ثقافتها باباً إلى عشقها . أما الصوت ، فغير وارد . وعاد لها وأكد لها أنه لم يسمع برجل أحب امرأة لأن صوتها فاتن . وأقسم أنه كان يداعبها.

نظرت إليه نظرة مستريبة وسألته :

- إذن .. لماذا تتصل بي هاتفياً كلما عدنا من سلطنة النوم واستيقظنا ؟

قال بتكلف :

- أشتاق لك .

قالت والريبة لا تترك نظراتها :

- تشتاق لي بعد دقيقة من فراقي ؟

خطف قبلة من جبينها وقال إنه أقسم . الأمر كله لا يخرج عن إطار الدعابة . وحلف أن لا يشير إلى جمال صوتها بعد اليوم أبداً إذا كانت هذه الدعابة تثير حساسيتها .

أخذته من يده ، فجلسا على أريكة واحدة . سألها عما سيفعلانه معاً . قالت وقد انتفضت :

- هل تعني أن نخرج إلى الشارع ونذهب إلى مقهى أو دار سينما أو ما شابه ذلك ؟

نكش أنفه ، فضربته ضربة هينة على يده وقالت إنه يقتدي بالسلطان في لا شعوره . وإن هذه العادة لا تليق بالرجال الأفاضل المنحدرين من أصول أرستقراطية مدنية . قالت إن زوجها أيضاً له عادات غريبة . وأشارت إلى أن الرجال يعانون من انفصام . كل الرجال . قالت إن زوجها لا ينتمي أصلاً وفصلاً إلى عائلة مدنية عريقة . لكنه اشتغل منذ وقت مبكر في إحدى دول الخليج ، ثم أقام علاقة شخصية حميمة مع رجل ذي نفوذ هناك ، وعندئذ انفتحت في وجهه طاقة الرزق ، أو قل بوابات الرزق .

لكن رغم سفره المتصل إلى دول أوروبا الغربية حيث الحضارة والآداب والارستقراطية العريقة ، فإنه لا يزال يقوم بأعمال صغيرة تافهة مبتذلة ، تذكرني بأصله وفصله . تصور أنه يبول في "البيدي" . وأنه لا يغسل أسنانه سوى في الصباح وأنه يتجشأ أمام الخادمة السيرلانكية .

المهم .. أنها رفضت فكرة الخروج من البيت ورأت أنها غير عملية . قالت :

- افترض أننا جلسنا في " كوفي شوب " وأنت غير مرئي . أولاً ، قد يستغرب الناس وجود امرأة وحيدة في الكوفي شوب . فالنساء غير الرجال . امرأة واحدة تدخل كوفي شوب أو دار سينما؟ لا هذا يثير فضول الناس . دعنا نبقى هنا في البيت ونتحدث.

إمتقع وجه مختار بدا الارتباك على وجهه ، وفي نظرة عينيه وفي رعشة يديه وشفتيه . لكن هبة لم تنتبه ، إذ قامت لتعد القهوة .

قالت إنها أرسلت الخادمة في إجازة حتى بعد الظهر . وقالت إن السيرلانكيات بتن جالية ، وأنهن يزرن بعضهن ويتهاتفن حين تغيب صاحبة البيت .

ظل مختار يتقلقل ويتململ في مقعده : نجلس ونحكي . ماذا سيحكي ؟ في سلطنة المنام ثمة حركة وأفعال ووقائع ، إنهما ينهمكان في ركوب الرياح ويحاول كل منهما أن يسبق الآخر . كان كل منهما يمتطي جواداً . أو يلعبان ألعاباً فيها تنافس ممتع . يجعل هو الشمس تشرق من الغرب . فتحول ، هي ، الكرة الأرضية إلى مثلث . يبحث هو بين النساء فيعثر على طيف مارلين مونرو ، يقبلها كي يثير غيظ هبة ، فتتلفت هبة ويقع بصرها بعد بحث وتقصٍ على عمر الشريف أيام شبابه . فتضع ذراعها في ذراعه ويخطوان خطوات . ثم تتركه هبة وتعود إلى مختار وتمد لسانها كأنها تقول :

- لقد قهرتك .

ثم يقترح أحدهما على الآخر أن يصعدا إلى القمر . ويثبا وثبة جبارة فإذا هما على القمر (الدليل الخاص الذي عينه السلطان ييسر لعبهما ولهوهما ويعاملهما معاملة خاصة) ومن سطح القمر ينظران عبر منظارين جبارين إلى الأرض . فيبصران كل شيء من فوق . الطائرات والغيوم والمطر تحتها . يتلصصان على شبابيك شخصيات عامة معروفة . هي تقول: أنظر إلى نافذة غرفة نوم ذلك الوزير الأسبق ، وهو يقول لها: أنظري إلى حمام زوجة الوزير . بل ويراقبان جسديهما النائمين . ويزودهما الدليل بأجهزة تنصت

خاصة ، فيتنصتان على منامات أسماء مرموقة في الحياة العامة .

فتهتف هبة :

- يا الهي .. إنهم مزيفون .

ويرد مختار :

- مجرد بشر مثلنا جميعاً .

لكن ، هنا .. في اليقظة داخل البيت ، لا يوجد ما يفعلانه سوى الحوار . وهو من افراطه في الصمت أثناء اليقظة يكاد أن ينسى الكلام .

عادت تحمل صينية عليها فنجانان من القهوة . قالت إنها لم تعد القهوة منذ أعوام . وأشارت له أن اشرب . قالت :

- أرجو أن يكون مذاقها جيداً .

رفع الفنجان إلى شفتيه رشف رشفة فاكتشف أنها نسيت وضع السكر ، وأنها بالغت في كمية البن . لكنه قال مجاملاً :

- ممتاز .

أشعلت سيجارة ، ثم حملت فنجانها إلى شفتيها فما إن رشفت رشفة حتى بدا التقزز والاشمئزاز على وجهها . قالت زاجرة:

- لقد جاملتني .. القهوة غير صالحة للشرب ، وأنت قلت ممتاز .

انكمش على نفسه و لم يحر جواباً. سألته إن كان يرغب في إحتساء قهوة أمريكية. قالت إنها تتقن صنع القهوة الأمريكية. فنتر رأسه سلباً. سقطت عليهما كتلة صمت ثقيلة سوداء وأقامت بينهما

على نفس الأريكة حاجزاً . لكنهما تجاهلاها . لم يعترف أي منهما بوجودها . لكنها كانت تنمو . قالت هبة متحدية جسم الصمت النامي :

- لقد غيرت الاحلام حياتي . لا أدري كيف أعبر لك عن امتناني لتقديمي إلى سلطان النوم . كنت أظن أن الناس يقولون "النوم سلطان" من باب المجاز أو المبالغة .

إبتسم ابتسامة عصبية وقال باقتضاب :

- وأنا أيضاً .

قالت :

- إذن ، لابد أن يوجد سلطان حقيقي للطرب . ألا نقول حضر سلطان الطرب ؟

قال مختار بصوت خفيض :

- ربما .

ثم فكر في أن يلخص لها قصة قصيرة قرأها يوم أمس . قال إنه قرأ يوم أمس قصة قصيرة لويليم فولكنر . وأنها قصة غريبة ، فهي تتحدث عن امرأة تنحدر من أسرة عريقة ، وتعيش وحيدة في منزلها الضخم الفخم الذي لا يوجد فيه إلا خادمها الأسود . وأنها تقطع صلتها بالبلدة والناس منذ وفاة والدها . وتتزوج بالسر من رجل ينحدر من طبقة كادحة . وأن البلدة كلها لا تكتشف هذا السر . إلا حين تخرج رائحة كريهة من البيت العريق فتفسد هواء وفضاء البلدة . يطالبها الناس بتنظيف البيت ، وتعدهم بأنها ستفعل. لكن الرائحة تتفاقم وتتراكم وتنتشر في شوارع البلدة . ثم

يكتشف السكان أن عشيقها توفي وأنها تريد أن تحتفظ به، مثلما تحتفظ بكل شيء ينتمي إلى الماضي .

تملته هبة بنظرة صارخة الضجر . تلعثم ثم قال :

- ما رأيك في أن نحضر فيلم فيديو ونتفرج عليه ؟

تأججت النظرة الصارخة بالضجر واشتعلت حتى كاد أوارها يحرق وجهه .

شبك ساقاً على ساق ، وراح ينقر على المنضدة المجاورة بأصابعه . وكانت كتلة الصمت تنمو وتأخذ شكلاً يمكن قياس طوله وعرضه ووزنه . وكان جدار الصمت الأسود الخفي بينهما ينمو ويرتفع . وظلت نظرتها العامرة بالملل الصارخ ثابتة على وجهه إلى أن ارتفع جدار الصمت إلى حد يحول دون رؤيتها . تنفس الصعداء ، فقد تخلص على الأقل من نظرتها العامرة بالضجر . قال في نفسه باستنكار :

- لماذا تنتظر المرأة من الرجل أن يسليها بالكلام والحوار ؟ لماذا لا تفكر أن تبادر هي إلى الكلام ؟ لماذا ينبغي على الرجل أن يبادر إلى كل شيء يتعلق بالمرأة ؟

وقفت هبة منتصبة ، بعد مرور نصف ساعة من الصمت الشامل المحرج . ثم دارت حول جدار الصمت الفاصل بينهما . وقالت :

- مختار .

فتح فمه ليقول نعم فانعقد لسانه . سألته بلهجة من يغالب ثورة غضب عارم :

- ماذا يوجد في الطابق الثاني ؟

سألها ببراءة :

- الطابق الثاني هنا ؟ في بيتكم ؟

عضت على شفتها السفلى حتى كاد الدم ينزف منها . قالت من بين أسنانها :

- نعم .. الطابق الثاني من بيتنا .

لم يدر ما الذي ترمي إليه من هذا السؤال السخيف . قال بفتور وعدم اكتراث انه يعتقد أن غرف النوم فوق .

ثم أنزل رجله اليمنى عن اليسرى ، وشبك اليسرى على اليمنى في اضطراب واضح . إذ شعر أن هذه الأسئلة ليست لله . ولكن لماذا ؟ الله أعلم . ينبغي أن يأخذ أقصى درجات الحيطة والحذر . يبدو أنها تقوده إلى لعبة سمجة .

نكست رأسها وشبكت يديها وسألته بهدوء مصطنع يواري تحته بركاناً :

- وماذا يوجد عادة في غرفة النوم ؟

تفحصها بنظرة حذرة وضحك بعصبية وسألها ان كانت تحزره حزيرة أو تريد منه حل أحجية . لكنها كررت بصوت تسيطر عليه في مشقة :

- ماذا يوجد ؟

قال وقد ضاع وتهدم وجهه :

- خزانة ملابس وسرير ومرآة ونافذة .

سألته بذات النغمة المكابدة المتجلدة :

- ولماذا يستخدم السرير ؟

حدثته نفسه بأن اللعبة سمجة فعلاً لأنه لا يفهم قواعدها . لكنه لاحظ الشرر الذي يكاد يتطاير من عينيها ، فجاراها قائلاً لنفسه (إلحق العيار لباب الدار .. لعلنا نرى إلى أي استنتاج تقودني) :

- السرير ؟ السرير يستخدم للنوم .

سألته وقد لاحت دموع في عينيها :

- ألا توجد أشكال مختلفة للنوم ، ومعانٍ ودلالات متباينة لكلمة النوم ؟

قال إن للنوم أشكالاً متعددة . من الناس من ينام على ظهره ، ومنهم من ينام على بطنه ، وبعضهم ينام متخذاً شكل جنين في الرحم .

قالت والدموع تترنح في عينيها :

- وإذا وجد شخصان .. رجل وامرأة ، في بيت المرأة وبدعوة منها ، والرجل يعرف أنها صرفت الخادمة من أجله ، ويتذكر أنها هي التي أخبرته متى يخرج زوجها من البيت ، إذا اجتمعت كل هذه العناصر ، فماذا يصبح معنى كلمة النوم ؟ ألا يصبح لها معنى مختلف عن الشخير ؟

أحس مختار أن الأرض تميد تحت قدميه . لقد فهم أخيراً مغزى اللعبة . منذ ما قبل التاريخ وهو ينتظر مثل هذه اللحظة . لكنه كان يعتقد أن الوقت لم يحن بعد . فالتوقيت في علاقة من هذا النوع شديد الأهمية . أحس أن التوقيت يكاد أن يفوته دون أن

ينتبه ، وأن تقديره للتوقيت المناسب كان غير دقيق . إذا كان يشكم نفسه كلما ظن أن اللحظة المناسبة التاريخية الحرجة قد حانت ، ويقول في سره :

- هذه امرأة ثقيلة . امرأة .. ليست أي كلام . امرأة استراتيجية . سياستي معها ينبغي أن تأخذ طابع النفس الطويل والصبر الجميل . فإن بادرت مبكرا بصقت في وجهي .

أدرك أن قطار التوقيت المناسب يكاد يفوته ، فانفلت مثل وحش كاسر ، مثل رجل يركض وراء القطار انطلق بقوة اليائس الذي صمم على عدم اضاعته ، واللحاق به بأي وسيلة ممكنة.

اندفع نحوها دون تمهيد ، ورعب هروب اللحظة المناسبة يزعزع كيانه . هجم هجوم اليائس نحو بساط ريح بدأ يقلع بدونه. رأى عينيها تتوسلانه السيطرة على نفسه ، كأنما ترسلان إشارة أن الوقت لم يفت بعد ، والفرصة لا تزال تنتظر فلا تتعجل . لكنه اتهم نظراتها بعين الريبة .

أقبل عليها كاسراً خائفاً من أن تطير أو تختفي من بين ذراعيه. ارتعشت ذعراً وتراجعت مرتاعة . وهي تكاد تقول له :

- على رسلك ، هدئ من روعك ، الفرصة لا تزال قائمة.

لكنه لم يمنحها أذنه ولا عينه ، وإنما غريزة عمياء عارية مباشرة بلا مقدمات ولا مقبلات .

منحته يدها لتصرف عنه جسدها . ثم سحبت يدها بحركة خاطفة ، وانطلقت راكضة والدموع تنهمر من عينيها بصمت . دخلت غرفتها وأقفلت الباب بالمزلاج .

سمعت نواحه . عواء ينبيء أنه يجثو مثل كلب جريح عند الجهة الأخرى للباب . يجثو على الأرض ويطلق نواحاً ضاعف من ارتياعها وذعرها . ظل ينتحب ساعة أو بعض ساعة . ثم سمعت خطواته تنزل الدرجات بتثاقل . كان لها وقع خطوات جندي عائد من معركة ، وقد خسرها .

ثم ترامى إلى مسامعها صوت الباب الخارجي وهو يوصد بقوة .

كانت دموعها في كل مكان . على الموكيت ، والسرير والمنضدة . في كل مكان كانت دموعها .

◆

١٤

ثمة رواية أخرى تدحض تماماً ما جاء في الرواية السابقة :

وتبدأ هذه الرواية هكذا :

قيل - والله أعلم - إنني التقيت هبة في بيتها أثناء اليقظة لأول مرة . كانت قد صرفت الخادمة السيريلانكية ، أما زوجها فقد انصرف إلى العمل . قالت بصوتها الفاتن :

- نذهب إلى سينما فيلادلفيا أو الكونكورد أو بلازا ، لا يهم الفيلم . المهم أن نكون معاً . تدخل بطاقية الاخفاء . وحين نتخذ مجلسينا ، ويعم الظلام الصالة تنزع الطاقية . العرض الصباحي أو عند الظهر هو الأفضل ، لأن الرواد قلائل . .

وذهبنا. وفعلاً كانت قاعة السينما شبه مقفرة. ثمة مراهق ومراهقة في ركن بعيد. ورجل وحيد في مقعد ناء . وثلاثة شباب في زاوية غير قريبة . حين أظلمت القاعة ، استرخيت في مقعدي

وخلعت الطاقية . أخذت يد هبة في يدي . همست :

- ماهو مستقبل علاقتنا ؟

إبتسمت . لم تر ابتسامتي . قلت :

- هل تسألينني عن مستقبل العلاقة قبل أن يبدأ ماضيها ؟

أرسلت ضحكة خافتة . كنا نمنح الشاشة بعض نظراتنا ونصرف عنها نفسينا . وبدأ اللهاث ، وعرقت الأيدي . همست في أذنها :

- دعينا نعود إلى بيتكم .

قالت بخوف :

- لا .

خفت ألا أتمالك نفسي . غالبت جنون رغبتي بها فغلبتها . قلت لنفسي بصمت :

- انتبه إلى التوقيت .

قبل أن ينتهي الفيلم خرجنا وأنا أضع طاقية الاخفاء . توقعت أن ألح عليها للعودة إلى بيتها . لم ألح . تكلفت أن شيئاً لم يكن . أخذت يدي خلسة وضغطت عليها . عرفت أنها إشارة امتنان لتجلدي وعدم إلحاحي . تمشينا في شوارع شبه مقفرة . قالت إنها تراهن أنني من تنابلة سلطان النوم ، وإنني لا أكاد أمشي إلا مضطراً وإذا كانت المسافات قصيرة . تحديتها ، كان الهواء رخياً ، لكن الشمس بدأت تفرك يديها كأنما تتأهب لصهر الناس والحجارة . مشينا وحكينا . حكينا عن سلطان النوم ، وعن أحلام اليقظة ، عن ظاهرة الاستيزار ، وأسعار الخبز والغلاء بشكل عام ، والعصر

التكنولوجي وانفجار المعلومات . حكت عن ذكرياتها حين كانت تدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت .

حكيت لها عن خوفي من الحياة . عن كآبتي . حكت عن ضجرها . هي قالت أن الحق على عمان . إيقاع الزمن في عمان سلحفائي . بينما إيقاع الزمن في بيروت والقاهرة وباريس ونيويورك أسرع من الضوء . قالت إنها تحكي عن بيروت التي عرفتها . وإنها لا تعرف بيروت الآن . وإن المدن تتغير شأنها شأن الإنسان . وإن التغير لا يعني التطور بالضرورة ، وكان شعرها يلعب وحده مع الريح كأنه نسي هبة تماماً . يتطاير كما يشاء ، يثب ، يقف على يديه ويرفع رجليه إلى أعلى ، يقوم بألعاب بهلوانية .

قلت إن مزاج طقس اليوم قلق ولا يستقر على بر . كنا نمشي وتحت خطواتنا تمشي قشعريرة تهز الأرض فتحس أقدامنا بالهزة . شعرنا أن الضجر ينقلب على نفسه ، والرتابة تختفي ليحل محلها إيقاع جديد . كانت خطواتنا تسوقنا ونحن لا نعرف . حكت كيف كانت تراني وأنا صغير ثم شاب . وحكيت لها بأي عينين كنت أراها ، وأطلقنا ضحكات أكثر جنوناً من شعرها الشاطح .

ولا ندري كيف ، وجدنا أنفسنا عند باب بيتها . دخلنا ، قالت إنها ستصعد لتستحم . صعدت بعد أن صعدت . وقفت عند منتصف الدرج سمعت صوت ماء الحمام . قلبي يخفق ، هل هذا هو التوقيت المناسب؟ نعم.. هو التوقيت المناسب . أشمه بحاسة سادسة. لا تستأذن الدخول معها إلى الحمام .. أدخل. لا، هذا تهور. الحمام دفعة واحدة؟ اسألها إذا كانت تسمح لك بالدخول.

نداء من الداخل :

- تحذير .. لا تستأذن المرأة . افعل أو لا تفعل . هبطت إلى الطابق الأرضي . دخلت حمام الضيوف . تحممت ، لم أعثر على منشفة كبيرة . بل لم أعثر على أي منشفة .دخلت في ملابسي مبلولاً . وصعدت كانت تجلس على طرف السرير تسرح شعرها الطويل كالحياة . التفتت رفعت يدها وكتمت ضحكة مجلجلة وهي ترى ملابسي تقطر بالماء . قالت إنني سأخذ برد . قالت ينبغي أن أرقد إلى جانب التدفئة المركزية . قلت لها إنها هي التدفئة المركزية .

عزفنا سيمفونية رائعة ، كأننا تدربنا على عزفها ، قبل عزفها رسمياً ، ملايين المرات . قالت حين انتهت السيمفونية :

- إنها الكيمياء .

قلت :

- بل الذبذبات والرادارات والموجة المشتركة .

◆

وفي رواية أخرى

وفي رواية فريدة لا يعرف من رواها ، وهذا نادر في مثل هذه الحالات ، يقول الراوي المجهول إن مختار دخل سلطنة المنام ذات نهار ، فإذا الجميع نيام ، سلطان النوم نائم . حاشيته وعسكره وخدمه وكائناته نائمون . الأشجار الغريبة تشخر ، أشجار الذهول وأشجار الحزن وأشجار الدهشة وأشجار اللقاء وأشجار الفراق وأشجار الشهوة .

الحجارة نائمة ، الكهوف ، الوديان ، النجاد ، الوهاد بحار الظلمات .. سلطنة النوم بكل كائناتها وموجوداتها وعناصرها وتضاريسها ومشيخاتها ودولها المزعومة وغير المزعومة ، وكياناتها المجهرية وضد المجهرية ، وأقاليمها الواقعية والوهمية ، وعوالمها الحقيقية والخيالية .. كل ما في سلطنة النوم نائم .

قيل -والله أعلم- إن مختار عثر على نفسه يجول في سلطنة

النوم ، لأول مرة في حياته ، من غير وجود سلطة . السلطان نائم ، والسلطة نائمة . راوده الرعب ، وساوره الذعر ، لكنه مشى . كان ذهولاً يمشي على قدمين . لم يعثر على شاخصة واحدة من الشواخص التي اعتاد على رؤيتها . و لم يعثر على إشارة من الاشارات الكثيرة الغزيرة التي كانت سلطنة المنام حافلة بها . الدروب غيرت اتجاهاتها ، الأماكن الوجوه الأزمنة الأسماء .. كل شيء تبدل . كأن الكائنات والعناصر تقمصت أشكالاً وهيئات أخرى ، أو أن كل شيء في السلطنة بات مستعاراً . أو أن كل شيء كان مستعاراً وعاد إلى أصله . الوجوه القديمة : هل كانت مجرد أقنعة ؟ الوجوه الجديدة الغافية ، هل هي الوجوه الأصلية أم العكس ؟

المقاهي مقفرة ، الكراسي مبعثرة . الأرصفة خالية . قذف خياله في روعه أنه إنما يرى كابوساً ، وأنه هو النائم وسلطنة النوم يقظة ، وأنه يحلم .

لكن الشخير ينطلق من كل زاوية وركن وغابة ومدينة وعالم. فكر في الرجوع إلى عالم اليقظة ، عنَّ له الادبار ، لكن خطواته لم تذعن له . كأنها تمردت عليه وعصته وراحت تسوقه من غير أن يخطط لها أو يهيمن عليها . أدرك أن أمراً جسيماً حدث .

رأى فيما يراه أصحاب الكرامات من الخوارق أن البشرية كلها تحلم أنها تحلم . وحين يحلم البشر أنهم يحلمون ، فإن سلطان النوم ورجاله وكل ما يخضع لسلطانه ينام ؛ لأن البشر يدركون أنهم يرون مناماً وتراءى لمختار شيخه الحبيب سيدي الشيخ تقي

الدين الحصيني الدمشقي السراقي الحسيني الشافعي . كان الشيخ في تلك المرة ، وعلى غير عادته ، أنيقاً حليق اللحية . يرتدي بذلة فاخرة وربطة عنق باذخة وينتعل حذاء لا غبار عليه .

شبك الشيخ تقي الدين ذراعه بذراع مختار ، وتمشيا . ومختار لا يسأله سؤالاً واحداً . كأن ما يراه طبيعي وعادي ويومي .

كانت الريح الماشية في منامها تعبث بالملابس المغسولة في سبات عميق والمنشورة على حبال الشرفات الغافية . مرا بقبر يشع منه نور أخضر . فقال الشيخ تقي الدين :

- هذا قبر " محمد بن حسن المعلم باعلوي " كان من أكابر الأولياء وأصحاب الكرامات . ظل طوال عمره مجتهداً في العبادة والرياضة ، وكان يترقب الفتح ، فقيل له :

- ما يفتح الله عليك إلا في آخر عمرك .

فكان الأمر كما قيل .

واشتهر أن الشيطان تعرض له بالأذى ، فأمسكه واستخدمه في أموره ، حتى أنه غرس نخلاً وجعله يسوق الماء إليه . وكان له اطلاع على أهل البرزخ ، ويجتمع بجماعات منهم . مات في حضرموت سنة ٨٤٥ ودفن بمقبرة زنبل وقبره معروف يزار .

وهذا قبر العلامة العارف شمس الدين محمد الحسيني البخاري، كان عالماً بالكتاب والسنة عارفاً با لله تعالى ، وكان زاهداً متورعاً صاحب جذبة عظيمة ، وله قدم راسخة في التصوف . ولد ببلدة بخارى وظهرت له كرامات . وواحد من أحفاده موجود حي يرزق، وكان يعمل في سوق البخارية في قاع المدينة .

وروي من كراماته أنه لما دخل الأمير تيمور مدينة بروسا وأفسد التتار في المدينة إستغاث الناس بالشيخ المذكور وتضرعوا إليه في دفع هؤلاء الظلمة . فقال : ادخلوا معسكره واطلبوا فيه رجلاً على هيئة رثة يصنع نعل الدواب ، ووصف لهم شكله وهيئته ، فإذا وجدتموه بلغوه سلامي وقولوا له عني إنني أسألهم الرحيل فطلبوه ووجدوه كما وصف ، وأوصلوا الخبر إليه فقال سمعاً وطاعة نرتحل غداً ان شاء الله تعالى ، ففي غد ذلك اليوم ارتحل الأمير تيمور مع عسكره بحيث لم ينتظر مقدمهم مؤخرهم .

تلفت الشيخ تقي الدين حوله ثم ارتسمت في عينه نظرة شرود وقال :

- إذا مررت بي يوماً أهديتك كتاب جامع كرامات الأولياء.

ثم ربت على كتف مختار وتأمله فرآه مطبق الفم ذاهل العينين. فرمى الشيخ حفنة من نظراته حوله . ثم قال :

- الاحلام صحارى والموت مياه ، لا يوجد كائن قوي إلا ويوجد كائن أقوى منه . ولا توجد ظاهرة عجيبة إلا وتوجد ظاهرة أعجب منها . وأعظم ظني أنك واجم ذاهل تتساءل عن نوم سلطنة النوم . وقد يكون الجواب بسيطاً جداً وعادياً . فسلطنة النوم بسلطانها وكائناتها وموجوداتها وعناصرها تحتاج إلى إجازة ، ولو إلى يوم واحد في الدهر الواحد . حتى الخالق سبحانه وتعالى استراح في اليوم السابع ، لا ترتعش خوفاً ولا ترتجف ذعراً ، فالجماعة يستمتعون بيوم راحتهم ، يوم إجازتهم . ألا ترى كيف ينام النهار في الليل ، وينام الليل في النهار ؟ ألا ترى الشتاء يأخذ إجازة حين

يأتي الصيف ، والصيف يستريح حين يقبل الربيع ، والربيع ينام حين يجيء الخريف ؟

فتحت فمي لأسأله عن هبة ، لكنني لم أقل . تناول يديَّ معاً شد عليهما وقبل أن يودعني ويرحل ، حانت مني التفاتة فإذا هو في عالم اليقظة . كدت أسأله عن قدرة أصحاب الكرامات على توزيع أنفسهم بالقسط في أماكن مختلفة ، في لحظة واحدة . إلا أنه غاب .

ثمة ريح تمشي في منامها وتنفخ أوراق الخريف والصحف فتتناثر حالمة في الفضاء . بغتة ، ترامى إلى مسمعي إيقاع موسيقي هادئ ، فتبعته كما يتبع فضولي طرف خيط . ومشيت ومشيت ، فإذا بي أمام سلطان الطرب . كان بهياً منتشياً مأخوذاً شاطحاً . وكان نزلاء سلطنته يقتعدون الأرض ويهزون رؤوسهم طرباً وهو ينشد ويغني . وقلت لنفسي ، إنني أسمع لأول مرة في حياتي صوتاً أكثر فتنة من صوت هبة . وقلت لو أنني أعثر على هبة فأحضرها هنا . إنها لن تصدق عينيها حين ترى أن سلطنة الطرب تقع فيما وراء سلطنة النوم .

أنشد سلطان الطرب عن أشياء غير مألوفة . لم يقتصر في غنائه الساحر الذي يزلزل شغاف القلب على الحب والغرام على طريقة المطربين العرب ، لكنه غنى أغنيات مستمدة من مملكة الشعر القديم ، شعر ماقبل حضارة الرافدين ، وشعر حديث . غنى عن الجروح التي لا يدخلها الداخل إلا محتفلاً ، وعن استرخاء الأرض ككاهنة أمام فراشه الحجري ، وعن زرافات الغبار ، وعن النفخ في رمال الذكريات ، واختتام الليالي المرهقات الطوال ، عن المرأة التي

خلعت للناس الغلائل شرط أن لا يردوها إلى عالمهم شيئاً من العناصر والأحوال . عن مشغله وملتقى الحروب والانقلابات الشعثاء ، والحروب الأهلية التي ترتطم دماؤها بهفهفة الرخام . والمجانين ، عن الذين دفعت الخطوب أعصابهم إلى الانهمار والتوغل في حصون الكآبة حيث الرغبة وجوه تشيح ، والحماسة وجوه تعرض ، والاقبال على الكنوز لا تكترث في عيونها نعاس رمادي زاهد .

وجوه كلها تصرخ بصمت رزين مهيب " يا دنيا غري غيري (....) قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها " . وغنى عن الكلام الذي لم يقله ، وعن الحرب التي خاضها في خندقين في برهة واحدة .

-١-

بوغت بعازف ينهض ويسعى نحوي كأنه يمشي في الهواء ويأخذني من يدي ويمشي . سألني إن كنت أرغب في دخول سلطنة الهوى ، فللهوى سلطان وسلطنة كما تعلم قال . أو سلطان الزمان. لكن حانت مني التفاتة فرأيت شاشات وأجهزة تشبه الكمبيوتر. والأقمار الصناعية وهندسة الجينات .

فأشرت إلى تلك السلطنة . فرافقني العازف ، بعد أن نكش أنفه ، إلى داخل السلطنة . فرأيت المستقبل ينهض أمامي بكل ذلك البهاء الذي نحلم به ولا نراه . عالم شبيه بعالم ألف ليلة وليلة ، فيه طواقي إخفاء ، لكن مادتها الخام مختلفة ، ورأيت خواتم سليمان سحرية مرتبطة بشبكة معلومات . وشباب يجلسون أمام شاشات

الكمبيوتر ، ويتوغلون إلى أعماق عوالمها ، وهم في أماكنهم لا يتحركون . يرتفعون في الفضاء أو يهبطون إلى أعماق سحيقة ، أو يرحلون في أزمنة تشبه الطرقات المتفرعة ، رأيت إبناً يكبر وأباً يصغر، وحين تساوى عمرهما والتقيا في سنة واحدة ، راحا يلعبان في الحارة .

ورأيت مالا يرى ، ثم عدت إلى سلطنة النوم ، فإذا السلطان يرسل شخيراً متصلاً ، وعالمه لم يستيقظ بعد . فعنَّ لي أن البشرية ، كلها ستعاني الليلة من الأرق .

-٢-

وهنا ينقسم رواة هذه الرواية إلى فئتين :

رواة يقولون إن زوج هبة انهار بالبكاء على حين غرة ، وراحت الدموع تنهمر على بدلته الأنيقة البيضاءِ الفاخرة (هؤلاء يقولون إنه لم يكن يرتدي سروالاً قصيراً على عكس ما روت الفئة الثانية) وأنه أخذ رأسه بين يديه وغطى وجهه المنكس . ثم قال :

- لقد رأيتك في سلطنة المنام مع مختار .

أما الفئة الأخرى من أصحاب هذه الرواية (أولئك الذين قالوا إنه كان يلبس سروالاً قصيراً) فقد قالو إنه لم يقل لها إنه رآها في سلطنة المنام مع مختار . وإنما قال بعد أن أخذ رأسه بين يديه وغطى وجهه المنكس :

- بعد تعرضي لتلك الاشعاعات الغامضة المزعومة ، بدأت

أرى شخصاً ثالثاً معنا . يرافقنا حيثما ذهبنا . يَقفُ في غرفة نومنا، حين نرقد سوياً (وقد يكون هو أحد جذور أسباب عجزي مؤخراً) . ترى هل بدأت أهلوس ؟ مرة ، كنت أحلق في الحمام ، فخيل إليَّ أنك تصيحين في وجه رجل :

- أتركني وشأني . أخرج من حياتي . أرجوك .

وتابعت الحلاقة . هل أظن بعقلي الظنون ؟

هكذا تساءل الزوج !

وفي رواية أخرى

جلس ثلاثتهم على شرفة غرفتهم المطلة على البحر . الزوج لا يرى مختار ، وهبة لا تراه ، لكنها تعرف أنه موجود . كان الزوج يرتدي سروالاً قصيراً ، ويدخن غليوناً ويراقب كلباً يهرول على الشاطئ . قال إن الاجازة ضرورية بين الحين والآخر . ينبغي أن يلتقيا بعيداً عن المنزل في مكان سياحي ، كأنهما قد تعارفا لتوهما ووقعا في مغامرة غرامية . كان سعيداً ويضحك وينفث الغليون ويضحك ضحكة مشرقة ساحرة . ولاحظ مختار رشاقة جسده ، وعضلاته المفتولة دون مبالغة . كانت هي تقرأ كتاباً وهو يقرأ صحيفة ومختار يراقبهما .

سألها زوجها ماذا تقرأ ؟ فقالت دون أن تلتفت :

– قصة .

سألها :

- قصة أشباح ؟

التفتت إليه ، تأملته بنظرة غامضة وقالت :

- لماذا أشباح ؟

قال :

لأنني أحس حضور أشباح أحياناً . أحس حضوراً غريباً أكاد أشم رائحته وأصغي إلى نبضات قلبه . منذ ذلك الوقت توقفت عن قراءة قصص الأشباح والأطياف والجن . إذ بدأت تثير مخاوفي وشكوكي .

وأرسل ضحكة ، لكنها لم تكن عفوية ولا مرتجلة ، كانت ضحكة مزيفة مفتعلة معدة بإحكام .

◆

لكن الجدير بالملاحظة هنا ، أن هذه الرواية تكاد تخالف كل الروايات السابقة فهي تدعي أن هبة تعرف عن عشق مختار لصوتها، وعن امتلاكه لطاقية الاخفاء . لكنها كانت تعرض عنه ، وترده وتصده وتناشده أن يخرج من حياتها السعيدة ، ويتركها في شأنها . وتقول هذه الرواية إنها كادت غير مرة أن تحكي لزوجها عن مطاردة مختار لها . لكنها كانت تخاف رد فعل غير مضمون العواقب. وعنَّ لها مرة أن تتصل بالشرطة لا بل إنها اتصلت بالشرطة ذات يوم ، ولما حكت لهم الحكاية ، جاؤوا وفتشوا البيت وبحثوا عن بصمات . ثم سألها الضابط :

- هل سرق الشخص الخفي أموالاً أو ذهباً ؟

نترت رأسها نافية . سألها وهو يرمقها بعين مستريبة :

- هل حاول التحرش بأحد في المنزل ؟

نكست رأسها ، وهمست :

- أبداً .

قال الضابط وهو يرمق زملاءه بنظرة ذات مغزى :

- هل لديك أي فكرة أو معلومة عنه ؟ إسمه ، عنوانه ، هل هو شبح أم عفريت أم جني ؟

وحين نفت ذلك . تنهد الضابط وقال وكأنه يرغب في الخروج من هذا البيت بأي ثمن :

- على كل حال ، إذا عاد ودخل منزلكم اتصلي بنا فوراً .

◆

تكشف هذه الرواية لأول مرة عن أن الحقل الأساسي لعمل زوجها يقع ضمن حقل الاتصالات والمعلومات المتطورة وأنه على علاقة ما بقضايا تتعلق بالكمبيوتر. والأقمار الصناعية وأجهزة الاتصال المتطورة والمعقدة . وكان يحلو له أن يحكي لهبة عن آخر منجزات الثورة التكنولوجية ، لكنها كانت تمنحه أذنها وتصرف عنه بالها .

في ذلك اليوم ، وبينما كان الثلاثة على شرفة الفندق المطلة على البحر . شبك زوجها ساقاً على ساق ، واتخذ هيئة ناطق إعلامي يرغب في أن يدلي بتصريح خطير . تنحنح . ثم قال : "الحقيقة .. ياهبة " ثم غص وخانه صوته ، امتقع وجه مختار وظن

لوهلة أن الزوج يعرف عن مطاردته لزوجته وملاحقته لها . لكن الزوج الذي كان يتقلقل على مجلسه في الشرفة المطلة على البحر قال :

- الحقيقة .. لا أدري .. لست على يقين ، أعتقد .. أنني تعرضت لغازات غامضة . تلك التي تتحدث تقارير عن تعرض بعض الجنود الامريكيين والبريطانيين لها ، بعد قصف مجمع عراقي لصناعات الاسلحة الكيميائية والجرثومية ..

اختفى صوته بغتة ثم ارتعش . قال بصوت متحشرج :

- لقد وطنت النفس علي أن أخفي هذه الحقيقة ، أو لعلها "فرضية " عنك ، لكن شعوراً غامضاً يفرض عليَّ نفسه بإلحاح اضطرني أن أفتح هذا الموضوع بشكل مفاجيء ومرتجل . ينبغي أن تستعدي نفسياً منذ الآن ، لمواجهة احتمال إصابتي بهذا المرض الغامض .

صمت كأنه يكاد يتشظى ويتداعى ، فيسارع إلى لملمة نفسه. قال إن الأعراض غريبة جداً . وإنه يذكر أنه لم يكن بعيداً عن الموقع العراقي الذي يتحدث عنه الامريكان . ذكرها برحلاته الخطيرة إلى العراق أثناء الحرب . وكيف أنها ألحت عليه في السؤال عن هدف سفره في هذه الظروف الخطيرة ، أجاب بكلمتين :

- عمل سري ، يضاعف ثروتنا من جهة ، ويرفع رؤوسنا وهاماتنا من جهة أخرى .

ذكرها كيف كان يهديء من روعها . ثم انتقل إلى أسلوب آخر للتعامل مع قلقها وأسئلتها . أسلوب الكذب الأبيض . يقول

لها إنه مسافر إلى الشام ، فيسافر إلى بغداد . وهكذا لم تعد تساورها المخاوف . قال إن الثروة الحقيقية لا تأتي دون مخاطرة ، فما بالك إذا اجتمع الدافع المالي مع القناعة المبدئية ؟

وضعت كفها على خدها . ولم تنبس .

وتساءل مختار عن القناعة المبدئية . هل كان الزوج مع العراق أم مع الكويت ؟

وعند هذه النقطة تنقسم فئتا الرواة إلى عدة فئات :

فقال قائل منهم إن هبة لم تنبس بكلمة واحدة . وأخذت يد زوجها بين يديها . نهضت وهبطت نحو البحر ، يدها في يده ، وصوتها في فمها لا ينطلق . ركلت بعض الحصى ، وكان هو يشيح بوجهه عنها متكلفاً مد بصره نحو الأفق . كانت هي منكسة الرأس ذقن وجهها على صدرها ، كأنها تراقب خطواتها ، ومع أن يدها في يده ، إلا أن جداراً من الرياح الشفيفة التي تكاد تكون غير مرئية كان يفصل بينهما ويرافقهما .

قالت دون أن تلتفت إليه إنها الآن فقط ، فهمت سبب التوتر الشديد الذي سكنه مؤخراً ، والكآبة المؤلمة التي حلت به .

كان يصغي بأذنه ويعرض بوجهه . كأنما تتهرب عيناه من عينيها . قالت في صوت فيه نبرة عتاب هين رفيق إنه بعد كل هذه لأعوام الطويلة من زواجهما ، لا يزال يحاول أن يثبت لها أنه فحل ورجل " حريف " في التواصل .

طارت دمعة من عينه ، فحملتها الريح وحطت على خدها . قالت وهي تحاول أن تزجر الريح التي تعبث بثوبها الفضفاض إنها

شعرت بموجات الكآبة الجارفة التي تجتاحه كلما عجز عن التواصل معها مؤخراً . قالت وإيقاع العتب والحب هين رقيق في لهجتها :

- بعد كل هذه الأعوام الطويلة من زواجنا ، ما يزال كل تواصل في السرير بيننا امتحاناً في عينيك . بل أنت لا تراه امتحاناً ، أنت تراه تحدياً ، تراه نزالاً ومبارزة . وتقدم إقدام الفارس الواثق من انتصاره ، كلك زهو واعتداد . مؤخراً حين لم يعد النصر مضموناً صرت تقلق وتكتئب . وتخاف من الامتحان الذي يكرم فيه المرء أو يهان . وكأنني مراهقة كبيرة ترغب في اثبات رجولتك لها . أم لعلك تريد إثبات رجولتك لنفسك كل أسبوع عدة مرات ؟ تتفقد قواك ؟

ثم تعرضت لمرض غامض أثر على قواك تأثيراً محدوداً ، لكنه أثر على مخيلتك تأثيراً سحرياً . أتتأزم لأنك فشلت أمس في الليل ، بعد أن كسبت مليون جائزة ووسام خلال أعوام الزواج الطويلة ؟ هذا تواصل . لا سباق ولا مبارزة ولا نزال مع النفس أو مع الطرف الآخر . منذ تزوجنا وأنت تقبل عليّ إقبالك على لعبة تستند إلى تحد يثير شهوتك إلى النصر . لمن تريد إثبات رجولتك المتفوقة الخارقة لي أم لنفسك ؟ والتواصل بيننا ، مبارزة لتكسب أنت فقط فيتعزز شعورك بالثقة الداخلية ، أم لإلحاق الهزيمة بي ؟ بالاضافة إلى الهدف الأول . كأنك تضرب عصفورين بحجر واحد . أم أنك تريد عصفوراً واحداً فقط ؟ لم أعد أفهمك .

بعد توغلك في عالم التكنولوجيا ، ورفضي الحاسم الدخول عبر بوابته بدأت مخيلتك تنمو نمواً شائهاً . لا أعتقد أن للمسألة

علاقة بغازات كيماوية عراقية فجرها الامريكان . أعتقد أنك بت تؤمن أن العلم والتكنولوجيا قادران على تحقيق كل الممكنات والاحتمالات ، فلم يبق في عينيك مستحيل .

في تلك اللحظة ركضت هبة على الرمال ، لحق بها زوجها ، ثم انعطفت ودخلت إلى البحر .

وفي رواية أخرى انها أخذت يده في يدها وهبطا إلى البحر تمشيا على الشاطيء ، هي تشيح نحو الأفق ، وهو يحدق في خطواته ويدها في يده . وقال إنه لا يعثر على يقين . إنه يعيش في حالة التباس ، اختلط الواقع والحلم عليه ، اختلطت الذاكرة بالخيال ، تداخلا ، لم يعد يعرف ما الذي رصدته الذاكرة ، وما الذي تصوره الخيال . رأيتكما معاً وناديت ، لم تسمعيني . حاولت اللحاق بكما، لكن ساقيّ انزرعتا في الأرض مثل جذعي شجرتين . شعرت بالعجز ، بالعجز عن اللحاق بكما ، لأرى ماذا تفعلان . وقلت في نفسي إن الغازات الكيماوية التي سببت لي عجزاً جزئياً قد تبرر لك الخروج مع رجل آخر . كنت أضحك على ذقني . لا تنظري إلى بذلتي البيضاء الباذخة الفاخرة . أنظري الى أصابعي ، إلى يدي .

كانت أصابعه متوارثة من بيئة كادحة . لا علاقة لها بالأصابع التي تعزف البيانو . ولاحظت هبة أن زوجها أيضاً ينكش أنفه . لماذا بات الجميع ينكشون أنوفهم جهاراً نهاراً بلا إحساس بالحد الأدنى من الخجل ؟ أهي علامة لم أفهم مغزاها ؟ تساءلت هبة . ركلت هبة الحصى على الشاطئ وأشارت عليه وهي تشد على يده أن يراجع طبيباً نفسياً . لا يمكن أن أصدق أنك تتأثر إلى هذا الحد

بمنظر تـراءى لك في عالم المنام . هل نزعت الحدود بين سلطنة النوم وبين عالم الواقع وبين الذاكرة والخيال ؟

وفي رواية أخرى إنها تناولت يده وهبطا إلى الشاطيء فحكى لها عن الغازات السامة وعن رؤيته لها ولعشيقها في المنام ، وأنه كان في المنام نفسه . فدفعته دفعة قوية نحو البحـر ، لم يكـن متهيئاً لهـا ، أخذته على غرة ، فقد توازنه وسقط على موجة سحبته مـن فورهـا إلى البحر . كان بكـامل أناقتـه وهـي تضحـك . وشعرها يداعـب الريح بقوة وبلا خجل . ثم لحقت به في ثوبها الفضفاض .

وكان مختار يراقبهما . يدس يديـه في جيبـه ويراقبهمـا بعينـين كئيبتين رماديتين . لكنه في الاعماق كان يشعر بنشوة النصر . لقـد تعرض الزوج لغاز كيماوي ، ولن يعود كما كان أبداً . مثـل مـرآة انكسرت . فتشظت وباتت عملية إعادة ترميمها شبه مستحيلة .

وحتى لو رممت فإنها لن تعود كما كانت . تـرى هـل كسـر القصف الامريكي لمجمع المواد الكيماوية العراقي مرآته ؟ أم حطمهـا كابوس أعده له سلطان المنام بدهاء وإحكام دون أن يومـيء ، ولـو إيماءة ، بأنه يعد لتحطيـم الـزوج ؟ الـزوج ينظـر في المـاء فـلا يـرى وجهه ، يحدق في المرآة المحطمة ، فيرى وجهاً بلا ملامح بلا اسـم ، وبلا رائحة ولا طعم ولا لون . زوج يشك في خيالـه المشـظى على مرآة مشظاة !

◆

أضعنا عدد الروايات أضعنا الحدود الفاصلة بين البحر واليابسة.

ثمة رواية تقول إن البحر فقد رشده في تلـك الليلـة . فـاض ، اندفع طوفانا ضارياً كاسحاً وغمر اليابسة كلهـا . وأغـرق الأحيـاء والمدن والصحارى .

وفي رواية ثانية ، أن اليابسة اندفعـت نحـو البحـر ، فـانكمش على نفسه . إن الصحراء أطلقت من مجاهلها السحيقة قبـائل غبـار وتراب ورمال ، فتصحر البحر .

وكان مختار يراقب بعينـين بـاردتين محـايدتين مـن قمـة المنـارة الشاهقة .

◆

جلسا علـى شـاطئ البحـر ومـدا بصرهمـا نحـو الأفـق . قـال الزوج وهو يشد على يد هبه إن الأطبـاء الأمريكيـين لم يجـدوا بعـد دواء لهذا الدخان السام الذي يسمونه هنـاك أعـراض مـرض حـرب الخليج .

أحست هبة أن يده لزجة . سرعان ما تبتل يداه بالعرق . انها لا تحب أن يمسك يدها فترة طويلة . لكن هذا لا يعـني أنهـا تقـرف منه . إنها لا تقرف منه أبداً.

ترك يدها وراح يبني قصراً من الرمال على البحر وقال إنه بدأ يؤمن بوجود الجن فعلاً . قال إنه يريد أن يبني قصراً لسلطان التنابل. ولهذا ينبغي أن يقتصر القصر على طابق واحد ، لأن التنابل لا طاقـة بهـم لصعـود الادراج العاليـة . سـوف يلهثـون . سـوف يفضلـون الجلوس والبقاء في الطـابق الأول حتـى ولـو قيـل لهـم إن الطعـام في

الطابق الثاني . سوف يفضلون الموت جوعاً إذا كان عليهم أن يرتقوا الدرج . وإذا قيل لهم أسرة نومكم في الطابق الثالث ، فسوف ينامون على البلاط العاري في الطابق الأرضي .

أطلقت هبة ضحكة خافتة وسألته متى بدأ يؤمن بوجود الجن. وقالت إنها كانت تتخيل أن العاملين في حقل العلوم لا يمكن أن يؤمنوا بوجود الجن .

لم ينطق من فوره . كان قد انتهى من بناء الطابق الأول . رفع رأسه وسألها :

- هل تعتقدين أن سلطان التنابلة ، تنبل مثل تنابلة السلطان ؟

أجابت وهي تضم ساقيها إلى صدرها :

- كما تكونون يولى عليكم .

قال انه يعرف أنها لا تحب أن تسمعه يتكلم مثل أسطوانة مشروخة عن الثورة التكنولوجية وعالم المستقبل . لكن معظم الاكتشافات العلمية بدأت تؤكد وجود كائنات غير بشرية أو لنقل كائنات لا تنتمي إلى كوكب الأرض موجودة بيننا ، لكننا لا نراها. قال إن المسألة على كل حال مسألة مبدأ منطقي . فإذا سأل نفسه هل تؤمن بأن علماء هندسة الجينات سوف يتمكنون مثلاً من صنع أشكال وكائنات غير بشرية ، أو نصف بشرية ، أو ربع بشرية عبر عبثهم بالجينات ؟ عليه أن يفكر ملياً بالجواب . فإذا قال إن هذا ممكن . فإن هذا الجواب لابد أن يفضي إلى ان الظاهرة الممكنة الحصول في المستقبل ممكنة الحصول في الماضي ، وربما كائنة الحصول في الحاضر .

قد تستغربين . لقد قرأت مؤخراً كتباً علمية وغير علمية عن كائنات فضائية ، وأطياف وأشباح يلمون بكوكبنا . ولقد بدأت أقتنع بالخوارق . كل ما ينجزه التطور العلمي الهائل الآن ، لو سمعنا به قبل نصف قرن أو قرن .. لقلنا خرافات . فإذا كان العقل البشري العادي قادراً عبر تطور العلم على اجتراح المعجزات والخوارق ، فلماذا لا أصدق أن كل شيء وارد ومحتمل وممكن ؟

وهذا كله يقودنا إلى سؤال وجود سلطنة النوم كمكان حقيقي قائم كائن له سلطان ومؤسسات بيروقراطية وموظفون أم لا؟ انني لا أرى ما يمنع ذلك في الواقع ولا أرى ما يمنع ذلك على الصعيد المنطقي . فنحن نقتل في النهار والواقع ، ونقتل في المنام . نمارس الجنس في الواقع ونمارسه في المنام .. ونشعر باللذة نفسها .

أطلق الزوج ضحكة مجلجلة وقال إنه انتهى الآن من بناء قصر سلطان التنابل . انه أكثر القصور تواضعاً في الدنيا . فالتنابل لا يريدون من العالم سوى أن ينساهم ويتركهم في حالهم يتمتعون على طريقتهم . قال :

– أنظري .. لا درج ولا شرفة ولا مسافات طويلة .

قالت وهي تطوي رأسها على ركبتيها إنهما كانا بحاجة ماسة إلى هذه الاجازة . كان ينبغي أن يأخذا إجازة ويأتيا إلى هنا منذ زمن بعيد . سألته :

– هل تعتقد أن الخيال يمكن أن يتمدد على حساب الذاكرة؟

في تلك اللحظة ، شعر مختار بالوحشة والضجر . هبط من المنارة العتيقة وسعى نحوهما . اقتعد الرمل إلى جانب هبة . تناول

يدها بأناة وحذر كي لا تجفل . سحبت يدها من يده بحركة رفيقة. عاد وتناول يدها بإصرار فسحبتها بحركة لا تخلو من عنف . زوجها المنهمك ببناء قصر آخر لسلطان التنابل لم ينتبه إلى حركة يد هبة . كان يوليها ظهره . قال إنه أحمق . قال :

- تصوري إنني أبني قصراً ثانياً للتنابل مع أن التنابل لا يمكن أن يستخدموا قصرين . فإذا أقاموا في قصر ، استقروا فيه إلى الأبد .

التفت إليها وقال بعينين مستطلعتين :

- لماذا سألت عن تضخم الخيال على حساب الذاكرة ؟

قالت بحزم :

- بدأت ذاكرتك تضمحل . أنت لم تبن القصر الثاني لأنك تريد بناء قصر ثان . لقد نسيت في البداية أنك بنيت القصر الأول .

إمتقع وجهه . حدق فيها بعينين تتفحصان ملامحها لتميز بين الملامح الجادة فعلاً ، والملامح المداعبة المشاكسة . لكنه لم ير إلا الصراحة والأسى ، فانتفض قلبه و لم ينطق حرفاً .

أعرض بوجهه عنها ، فقامت وجلست أمامه مباشرة . وراحت تسكب نظراتها وتصبها صباً في في عينيه . قالت إن كلامه على الكائنات الفضائية والجن والعفاريت والأرواح والأشباح مؤشر واحد فقط ، من مجموعة مؤشرات تدل على أن خياله يتسع على حساب ذاكرته . قالت :

- هل لاحظت أنك بحثت أمس عن الحذاء وأنت تنتعله ؟

صمتت لحظة وهي تتأمل شرخاً هيناً شبه خفي يتفشى في رأسه ووجهه . سألته :

– متى نحن الآن من الوقت ؟

انتفض .. أجفل .. قال لها إنها تمزح . لكن عينيه قالتا :

– أتوسل إليك . أن تقولي إنك تمزحين .

التفتت إلى الأفق وهو يتضاحك بعصبية.

قال إن المساء يشبه الضحى .

ثم نظر إلى ساعته . قال :

– إنها السادسة .

سألته : صباحاً أم مساء ؟

إرتبك . اتسع الشرخ في وجهه . بدأت آثار تصدع . سألها:

– هل تعتقدين أن ما تنشقته أيام تفجير المصنع .. سبب لي..

قالت إنها كانت تلاحظ ملاحظات متفرقة مجزأة حول ضعف ذاكرته واتساع خياله . لكنه الآن ، وبعد أن أخبرها عن تعرضه للأعراض الذي يتحدث عنها عسكريون أمريكيون وبريطانيون كانوا على بعد أميال من الموقع .. الحقيقة ، الآن فقط ، بدأت ملاحظاتها الجزئية المتفرقة ، تتخذ منظومة مفهومة .

غرق في سكون محسوس ، سكون ذي دلالة ومعنى . سكون مرعب ملموس . أسود اللون . له رائحة . سكون تفوح منه رائحة دخان ومبيدات . سكون لا يسمعه من الداخل غيره هو .

وقف بأناة. وضع يديه على خاصرتيه . ومشى نحو البعيد على الرمال . كان واضحاً أن الرجل يريد أن يكون وحيداً لساعة أو ساعتين من الزمن . مسدت هبة الرمال بكفها .

قال مختار بلهجة مسترِيبة :

- هل تلعبين لعبة على زوجك ؟ هل تمهدين إلى حياة ثلاثيةمشتركة ألعب فيها دور الكائن الفضائي أو العفريت الشبح ؟

قالت دون أن تلتفت :

- أنت مبتذل .

نهضت منتفضة ، ومشت إلى الفندق دون أن تنفض الرمل بيديها عن ثوبها . دار رأس مختار . الصدمة كانت باهظة . أن تقول له " مبتذل " بلهجة تسطع بالكراهية والاحتقار . ما الذي قلب مزاجها . تناول من فوره كمية كبيرة من أقراص المنوم .

وراح يحدق إلى الموج بانتظار سلطان النوم . لم يأت سلطان النوم . لكنه حين دخل وحيداً ، ودون مرافقة السلطان ، إلى السلطنة رأى الجميع نياما . البشر والحجر والشجر .

إنهار ، جثا على الأرض وأخذ ينتحب مثل طفل صغير .

◆

رواية أخرى

وهنا أيضاً تتعدد الروايات وتتضارب . لكن الرواية الراجحة هي الرواية التالية :

استيقظ مختار فعثر على نفسه في حضن أمه . رجل تجاوز سن الرشد يقعي على حضن أمه . كانت الدموع تملأ عينيه . سألها :

- هل أنت جنية حقاً ؟

ضمته إلى صدرها بقوة . قالت :

- نصف جنية .

سألها :

- وأين هبة ؟

مسدت على شعره وقالت :

- ألن تنسى هبة ؟

اكتشف أنه راقد على حضنها ، وأنها راقدة على السرير .

سألها عن زوج هبة .

قالت :

- سألتني عشر مرات اليوم عن زوج هبة . قلت لك إنه في المستشفى .

سألها بلهفة :

- لماذا ؟

قالت إنها لا تدري . سمعت من أم هبة ، أن زوج هبة في المستشفى .

أخذ مختار رأسه بين يديه . ثم انتفض وطوق أمه بقوة وقال منشدها ذاهلاً :

- إذا كانت سلطنة النوم نائمة ، فإن هذا يعني أن سلطنة الواقع واقعة . عانق أمه مثل طفل صغير وسألها والدموع في عينيه :

- لماذا هربت أم " بيتي " مع ذلك الغجري ؟ لماذا تركت زوجها وابنتيها ؟ هل تفضل النساء الرجل الصعلوك الحر الطليق المزاجي الذي لا يداوم في وظيفة ، ولا ينام في بيت واحد ؟ الرجل المغامر الذي يعيش مع الطبيعة .. هل يفضلنه على الرجل المنظم الذي تتمتع حياته ببرنامج ونمط ؟ هل يعتقدن أن مثل هذه الحياة مملة ؟ حياة الذهاب إلى الوظيفة كل يوم في ساعة محددة . والعودة في ساعة محددة . وانتظار .. لاشيء .. إنتظار لاشيء ، سوى راتب نهاية الشهر ؟

◆

تكاد كثرة الروايات وتنافرها وعدم اكتمالها تفلت الخيوط من أيدينا . ألا يوجد يقين في هذه الحكاية ؟ يقين ثابت بعيد عن الشك والريبة والتساؤل . لكن اليقين يحتاج إلى رواية واحدة يتفق عليها جميع الرواة .

◆

على كل حال ، نختار في هذه المرحلة رواية محددة (من الممكن اختيار غيرها فهي كثيرة) لكن هذه الرواية أقرب إلى المنطق. يقول أصحاب هذه الرواية ، إن الأمور التبست على مختار ، وإنه قرر أن يسعى إلى سلطان النوم ويلكزه كي يستيقظ . أمه حذرته . قالت إن الذهاب إلى سلطان النوم ، وأنت يقظ ، أمر خطير جلل .

صاح كالمخنوق :

- وإذا مضيت إليه نائماً ، فإنني لن أجرؤ على التفكير في إيقاظه . إذن لابد من الذهاب إلى سلطنة النوم في حالة يقظة . هذا هو الحل الوحيد ، لإيقاظ سلطان النوم . أريد أن أفهم رأسي من رجلي . هل تميزين أنت بين رأسك وقدميك ؟ لقد إختلطت أمور العالم ، أو أموري أنا ، فالتبس الأمر . وإذا لم يستيقظ لأستعين به، فستكونين أنت أول من يقول :

- لقد خولط المسكين في عقله .

ضربت أمه كفاً بكف . وقالت :

- حتى في عالم الجن .. لا يدخل أحد سلطنة المنام يقظاً .

ثم حوقلت . واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم .

رواية التجسس

إلا ان أخطر الروايات التي قيلت حول هذه الحكاية ، هي الرواية التي أكدها صديق الزوج الحميم فريد الأخرس في المحكمة الخاصة شبه السرية بعد أن كادت خيوط الحكاية تفلت وتفجر فضيحة كبرى تظل حديث الناس لسنوات . فالضجر يجعل الناس يتصيدون الفضائح تصيداً ، فيضخمون ويبالغون ويخصمون ويجزئون على هواهم .

قيل على عهدة فريد الأخرس ، صديق الزوج الحميم ، إن الزوج ، بصراحة ، كان أشطر لعيب ثلاث ورقات في العالمين العربي والاسلامي . وإن فريد الأخرس الذي كان مستودع أسراره الوحيد ، شاهد أكثر من أحد عشر عرض سيرك في أماكن مختلفة من العالم . فلم يعثر على بهلوان تفوق عبقريته عبقرية الزوج في الدهاء والنصب والاحتيال ، ولكن في سبيل قضايا نبيلة . وقد

استخدم الشاهد فريد الأخرس كلمة الزوج أو زوج هبة في كلامه أمام المحكمة الخاصة ، لأن فريد الأخرس نفسه ، المقرب الوحيد من الزوج ، لم يكن يعرف اسمه الحقيقي . فقد كان يستخدم عشرات الاسماء المستعارة، مثلما كان يحمل عشرات جوازات السفر المزوّرة.

يبدو من هذه الرواية أن الزوج ، وهو امبراطور الفهلوة ، الذي يلقط الأشياء وهي طائرة ويقرأ الممحو ، أحس أن جواً جديداً مريباً قد طرأ على بيته . وحين يقول الرواة " بيته " فإنهم يعنون علاقته مع زوجته يقولون إنه ابن حرام يشم رائحة المريب على بعد مسافات فلكية . شم رائحة جو مريب . لكنه خفي بلا آثار ولا مؤشرات . و " الزوج " ، كما أفاد شقيقه الذي لم تلده أمه ، أي فريد الأخرس ، ممثل عبقري ، إنه يضع عمر الشريف وفريد شوقي وأنطوني كوين في جيبته الصغيرة . ينتحل الشخصية حتى يقنعك ، وهو على المسرح والتذكرة في يدك ، إنه اختطفك إلى قصر "عطيل" على سبيل المثال .

باختصار هذا الرجل سلطان سلطنة السحر . وخير دليل على ذلك أن فريد الأخرس (شقيقه الذي لم تلده أمه) لا يعرف اسمه الحقيقي .

إنه لا يسرق المحفظة من جيب عابر سبيل ، ولا ينهب بنكاً ، إنه يسرق عابر السبيل كله بالاضافة إلى السبيل . يقنع عابر السبيل أن القدر اصطفاه ليلعب دوراً معيناً ، لنقل دور مسؤول برج المراقبة في المطار . فيقنعه بأن القدر اختاره ليلعب هذا الدور حتى ولو كان عابر السبيل هذا ضريراً وأصم . ثم إنه لا ينهب البنوك . إنه يقنع

مدراء البنوك ، بأن يركضوا خلفه . ويتنافسوا عليه ، كي يقرضوه أموالاً خيالية . أما بعض أصحاب النفوذ و " الحيتان " و"المفاتيح " فإنه يلعبهم على أصابعه العشر . يدخلهم من تحت إبطه الأيمن ويخرجهم من تحت إبطه الأيسر . إنه السحر ذاته يمشي على قدمين. وإذا كان الساحر يخرج أرنباً أو حمامة أو منديلاً من قبعته، فإن "الزوج" يخرج الشمس من قبعته لا من الشرق ولا من الغرب . يقنعك بأنه قادر على إخراج جميع المعتقلين السياسيين وغير السياسيين في القارات كلها ، من قبعته ، ولو كان مؤمناً بأن هذا العمل جليل وإنساني . بل يقنعك أنه يستطيع استخراج النفط من قبعته السحرية لو أراد .

إنه الرجل الوحيد على هذا الكوكب القادر على أن يخدع سلطان المنام .

نعم . شم رائحة أمر مريب داخل البيت . لمسة هبة ، حين تضع يدها على كتفه اختلفت . مقدار ضغط يدها حين تتناول يده هبط قليلاً . طول القبلة انحسر . القبلة النموذجية التي كانت تستغرق ستين ثانية باتت تستغرق تسعاً وخمسين ثانية .. لماذا ؟

لاحظ أنها كانت تستقبله في المطار حين يعود من السفر إذا كانت الرحلة خلال النهار . فصارت تستقبله على البوابة الخارجية للبيت ، ثم عند الباب الداخلي .

كان يقول لفريد الأخرس :

- لا تقل لي العشرة والعادة والألفة والزمن .. هات يدك . إنني ألمس يدك الآن ، أليس كذلك ؟ إنني لست قابضاً على وهم ،

بل على يد فريد الأخرس ، أليس كذلك ؟ فريد ، إنني أقبض على الجو المريب في البيت ، مثلما أقبض على يدك الآن بكفي .

لكنني الآن أعرف أن يد فريد الأخرس بين كفي . مالا أعرفه حتى اليوم ، هو ما هي هذه " الظاهرة " المريبة التي قبضت عليها متلبسة في بيتي . حاستي السادسة لا تحور عن السبيل الصحيح ، ولا تختلط عليها المقاصد .

زرع في البيت أجهزة تصوير سرية . بلا جدوى . كان يصرخ :

– ثمة ما يحدث من وراء ظهري في بيتي . وهو طارئ جديد لم يطرأ إلا منذ أسابيع .

اختبأ مرة خلف ستارة . قال إنه ظن أن هبة تكلم نفسها للوهلة الأولى . ثم اكتشف أنها تكلم شبحاً . ظن بعقلها الظنون . لكنه وضع أجهزة تنصت فسمع صوته . صوته مألوف .

ثمة ظواهر لم يكن يفهمها . كان يرقد كل منهما على طرف السرير بعيداً عن الآخر . ثم يغطان في نوم عميق ، بعد أن يتناولا أقراصاً منومة . أي عقل شيطاني أو خارق العبقرية يستطيع فهم هذا المشهد ؟ لا أحد . لماذا يأتي الشبح أو الجني ويرقد على الطرف الأيسر للسرير بعد أن يبتلع قرص منوم ؟ ولماذا تفعل هي الشيء ذاته .. لكنها ترقد على الطرف الأيمن للسرير ذاته . حتى أنه لا يضع يدها في يده .

كان يذرع الشوارع في الليل وهو يكلم نفسه . كاد يفقد صوابه . زهوه تعرض لجرح عميق ، اعتداده بنفسه تخلخل . لا

كزوج أو حبيب (هذه تأتي في المرتبة العاشرة) لكن ثقته بأنه قادر على أن يجعل الكرة الأرضية ترقص وتدور حول نفسها فوق أصبع من أصابعه .

بطرقه الشيطانية السحرية تعرف إلى المشير عبد الحكيم عامر، وصار نديمه . المشير صار نديم " الزوج " لا العكس . أقام علاقة وطيدة مع المطرب فريد الأطرش . هيمن عليه – والله أعلم – إلى درجة إقناعه بتغيير اسم أغنيته الشهيرة الربيع . كان فريد الأطرش يرغب في إلحاح بتسميتها الخريف ، كي يلائم مزاجه الكئيب ، وصوته البكّاء . فأقنعه " الزوج " بأن الربيع هو الحزن الحقيقي . إنه الأسى الباطني العميق المضمر السري المموه . أما الخريف فظاهر سطحي لا يحمل سراً . إنه مجرد قناع ظاهر . وهكذا اقنع الأستاذ فريد الأطرش أن تغيير اسم أغنيته إلى الربيع ضرورة حتمية . تصوروا !؟ فريد الأطرش الحزين البكاء المكتئب على مدار الساعة يقبل أن يسمي أغنية " الربيع " ؟

إلى هذه الدرجة الخيالية كان يعبث بعقول الناس، ويقلب قراراتهم وقناعاتهم ومبادئهم ومواقفهم رأساً على عقب. يقال – والله أعلم – إنه أقنع الجنرال موشيه دايان بالتوقف إبان حرب حزيران عند نهر الأردن وقناة السويس وبلدة القنيطرة . فقد سكر الجنرال الاسرائيلي بنشوة النصر ، وقرر الدخول إلى العواصم العربية، لاستعراض عضلات جيشه ثم العودة إلى الخط الذي قرر التوقف عنده بعد الحرب . لكن " الزوج " أقنعه بأن تجول جنوده المنتصرين في القاهرة ، وعرض عضلات دباباته في دمشق ، وإقامة سحابة

هائلة من الطائرات الحربية فوق عمان . سوف يثير مشاعر الاستفزاز والتحدي والرغبة في المقاومة ، في أعماق المشير المصري عبد الحكيم عامر ، واللواء السوري عبد الكريم الجندي (مدير المخابرات السورية آنذاك) فيحول ذلك بينهما وبين الانتحار . علماً بأن هذين الضابطين ، وكما يعلم موشيه دايان نفسه ، هما العقلان العبقريان المدبران الاستراتيجيان الوحيدان القادران على وضع خطة استراتيجية مضادة تعيد تحرير كل الأراضي العربية التي احتلها الجنرال دايان عام ١٩٦٧ ! وفعلاً . ثبتت نبوءته وانتحر أعظم عقلين استراتيجيين عرفتهما الأمة العربية خلال القرن العشرين! وكان المشير عامر الضابط العربي الوحيد القادر على التخطيط لهجوم مضاد بعد النكسة بعام واحد فلا تقف دباباته إلا عند القدس . وكان عبد الكريم الجندي العقل العربي الوحيد القادر على قراءة ما يجول من مخططات في عقل الجنرال دايان بالعين المجردة!

طبعاً ، لم يقنع " الزوج " الجنرال دايان وينصحه ويشير عليه لمصلحة اسرائيل . أبداً . وإنما لمصلحة السلام العالمي . فقد كان الرجل يخطط لإقامة المدينة الفاضلة ، وتمتد حدودها من كندا في الشمال حتى افريقيا الجنوبية في الجنوب . وهذا يتطلب بعض الفهلوة ، التي تقتضي أحياناً أن لا يتمسك الإنسان بشكل مبالغ فيه بالمقاييس الاخلاقية والمعايير المثالية ، والنظرة الرومانسية . فالغاية تبرر ألف وسيلة ووسيلة .

المهم ..... الرجل كان ظاهرة عبقرية نادرة . أخطبوط تمتد

علاقاته من بريجنيف إلى نيكسون إلى بوكاسا إلى البابا في الفاتيكان إلى " آل كابوني " زعيم المافيا ، إلى الارهابي كارلوس والثائر غيفارا .

ولن يصدق أحد ، سيدي الرئيس وسادتي القضاة أنه جمعهم كلهم ذات ليلة على مائدة عشاء . واشترط عليهم أن يشطروا وقت السهرة إلى شطرين : الشطر الأول يقتصر على مباراه في النكات البذيئة . وفي الشطر الثاني تبدأ المحادثات السياسية . وكان يعلم مسبقاً أنهم حين يتعدون الوقت المسموح للشطر الأول ، ستكون القهقهات وروح التنافس والمبارزة في النكتة ، وزجاجات الخمر ، قد جعلهم يقترحون تعديلاً على الاتفاق الأول . يمضون هذه السهرة كلها في التنافس والنزال والمبارزة والسباق في حلبة النكات البذيئة . ثم يترك الأمر " للزوج " كي يحدد موعداً آخر لمأدبة أخرى ، لا يتبادل فيها العمالقة سوى الأحاديث الرزينة الصارمة السياسية والاقتصادية والعسكرية .

وطبعاً ، كان " الزوج " يعرف أن أحداً من هؤلاء لا يرغب في مثل هذا الاجتماع الرصين الجاد ، إلا في ظروف مختلفة ، ومؤتمرات ثنائية . حيث لا يختلط الحابل بالنابل .

كان أيها السادة يحلب النملة ، ويرضع الأنهار ، ويُهَوّي للهواء والريح ، ويدفئ قدمي الشمس فيفركهما بيديه وهو يتضاحك . كان يشتري الأيس كريم للثلوج .

ما كان فريد الأخرس يشعر بالدهشة ، حين يوقف " الزوج" السيارة ، وهما يمران بشاطئ بحر في يوم قائظ . ويقول له :

- عن إذنك .

ثم يترجل ، ويهرع نحو الصندوق يخرج زجاجة من الجعة المثلجة ويركض نحو الموجة، يسقيها كما تسقي الأم طفلها الرضيع ملعقة ماء . كان يسقي الموجة بحنان ومتعة ، وليس كمن يقوم بواجب ممل ، ثم يعود منتعشاً ويقول :

- صدقني .. لن تنسى لي هذه الموجة هذا الموقف إلى أبد الآبدين .

في الحرب الأهلية اللبنانية كان يتبرع بمبالغ ضخمة للكتائب اليمينية وميليشيات يسارية في بيروت الغربية معاً ويسوغ ذلك قائلاً:

- قد تظن أن تبرعاتي هذه نوع من الرشوة . أبداً ، إنها من أجل أن تنتهي الحرب بصيغة " لا غالب ولا مغلوب " . فإذا غلب طرفٌ طرفاً آخر .. يالطيف . ستحصل أكبر مذبحة مشينة عرفها التاريخ البشري . وسيقال عن العرب عندئذ : كانوا نقطة عار على جبين الانسانية .

المهم .. اكتشف الزوج علاقة زوجته بشبح . كان يحاول أن يجر رجلها . حتى قال لها مرة إنه يؤمن بالجن والأشباح . وإن معظمهم طيبون . حتى كاد يلقي في روعها أن تقترح أن يتناول ثلاثتهم طعام العشاء على الشاطئ معاً . لكن هبة أيضاً لم تكن ساذجة . وحين اخترع لها حكاية المصنع الكيماوي العراقي ، اخترعت له حكاية تضخم مخيلته على حساب ذاكرته .

فهم الزوج اللبيب أنها كشفت " طبته " كما يقولون .

وإنها تراوغ مثلما يراوغ . فأثارت اللعبة حماسته وأججتها . فالأخلاق والشرف والعرض مسائل خطيرة في عينيه . لكن اللعب الذي يفوح برائحة المبارزة والتحدي والتنافس والاستفزاز هو معنى الحياة كلها بالنسبة إليه . ولولا هذا التنافس والنزال الذي يعتمد على الحيلة والدهاء " والسبعة وذمتها " أي كل الوسائل المحرمة وغير المحرمة ، فإن الحياة تصبح في عينيه مملة مثل الحياة في دير يقيم به ناسك يمضغ الضجر والصمت .

ظلا يلعبان هذه اللعبة ، والضحية ، أي مختار ليس في الصورة. أي أنه لا يعرف أنهما يعرفان ويلعبان هذه اللعبة الخطرة . وأنه هدف اللعبة . هي تحاول الحفاظ عليه سراً في عالم الباطن والمضمر . وهو يحاول الوصول إلى مفتاح هذا اللغز ، والوقوف على تفاصيل هذا السر ، وتعريته تحت شمس ساطعة متوهجة .

تصاعدت وتيرة اللعب . مرة خرج عن طوره ووضع فوهة مسدس في فمها كي تقر وتعترف . وحين سحبه . لم تقل سوى :

- لقد خالفت قواعد اللعبة .

ومرة اقترب إلى درجة خطيرة من القبض على اللغز متلبساً فطعنته بسكين المطبخ ، وقد فارقها الصواب للحظة (خوفاً من الهزيمة وليس خوفاً من الفضيحة مثلاً) وكان الجرح خطيراً جداً . وحين شفي وزارته في المستشفى ضحك واكتفى بأن قال :

- خالفت قواعد اللعبة .

نعم يقول بعض الناس إن الزوجين اللذين لا يشبهان بعضهما بعضاً يوم الزفاف ، يصبحان مثل شقيقين توأمين بعد عشرين سنة

من الزواج . تعابيرهما ، طريقة ضحكهما ، ما يطربهما .

لكن هبة ، على ما يبدو ، انطبق عليها المثل القائل :

- علمناه على الشحادة .. سبقنا على الأبواب .

أي أنها تلميذ كاد يتفوق على أستاذه .

كانت اللعبة تسيربشكل طبيعي ، والكر والفر والنشوة والمتعة والمكائد والكمائن متبادلة بسوية واحدة . إلى أن تدخل الأحمق مختار . فدخل حقل الألغام . ظنه حقل أزهار وورود ، ودخل حلبة صراع لا يتوقف إلا عند الدمار الشامل ظاناً انها حلبة رقص .

سمع مختار الزوج يردد عدة مرات أنه يرغب في التعرف على الشبح الذي يحوم حولهما . وأنه يحب الأشباح والجان . فمعظمها طيبة وفي خدمة البشر . وأنه يمر بمصاعب مالية كبرى . وأن نشر حديثاً تلفزيونياً مصوراً مع الشبح على شبكة " سي . إن . إن " سوف يدر عليهما الملايين ؛ لأن الكاميرا ستصور الشبح في بث حي ومباشر وهو خفي ، ثم تصوره عندما يتجلى وعندما يختفي من جديد . قال بصوت متجهم :

- والا وجدنا أنفسنا ، أنا وأنت ، وراء القضبان .

الزوج الداهية ، كان يدرك أن هذه الكذبة السوداء لن تنطلي على هبة لكنه قالها بعد أن شعر بحاسته السادسة أن الشبح يحوم حولهما .

قالت هبة :

- مستحيل . لو علقونا على المشانق . إنس الموضوع .

إعتقد مختار أن هبة تحاول أن تحميه ، وانها على استعداد

للتضحية بنفسها وبزوجها ، في سبيل حماية سره .

ولما كان يدرك موقفها المبدئي الحازم بأن لا تقوم بينه وبين زوجها علاقة مباشرة أم مداورة . فقد حزم أمره ، وقرر أن يناقش هذه المسألة بعقلانية وحكمة مع الزوج ، الذي بدا له عاقلاً متحرراً حضارياً ، والخروج بحل للمشكلة . فإذا كان ظهوره على شبكة " سي . إن . إن " يعصمهما من الإفلاس وقضاء بقية حياتهما في السجن ، فإن المحاولة تستحق المخاطرة . ثم إن الظهور على شاشة " سي . إن . إن " بحد ذاتها تشكل إغواء لا يستطيع كبار الزاهدين مقاومته .

أن تتطلع ملايين ، بل مليارات العيون نحوك ، تحدق فيك ذاهلة والقلوب واجمة . والجميع يريد أن يرى كيف يتجلى مختار ثم يختفي . وبعد ذلك ستتهافت عليه أجمل الصحافيات والاعلاميات . من كل القارات ، وتتسابق دور النشر لكتابة قصة حياته ، التي ينبغي أن يخترعها منذ الآن ، فهو بلا قصة حياة . عليه أن يجعل حكاية مقتل أبيه كرة الثلج التي تبدأ بمجرم عادي يقتله ، ثم تتكشف الخيوط عن مؤامرة إقليمية دولية ، تورطت فيها دول وشخصيات معروفة لامعة .

قرر مختار أن يقابل " الزوج " وجهاً لوجه على انفراد . ويعقدا صفقة يستفيدمنها ثلاثتهم . أما هبة ، فينبغي أن لا تقف على سر هذه الصفقة ؛ لأن النساء رومانسيات مثاليات إلى حد قد يدفع امرأة عاشقة مثل هبة ، أن تفضل دخول السجن ، على أن تكشف سر مختار .

حين التقى هبة ذلك النهار أظهر الثقة والطمأنينة العادية ، وأسر المؤامرة والمخطط والمكيدة ، التي ستصب في صالح الجميع .

وربما تكون الخسارة الوحيدة ، هي انهيار العلاقة الزوجية بين هبة وزوجها ، وهذا هدف من أهدافه الجوهرية . صحيح أنه ليس هدف هبة . وأن تطلعه إلى إنجاز هذا الهدف من وراء ظهر هبة أمر لا أخلاقي . لكن المرء قد يضطر أن يغض النظر عن المقياس الاخلاقي .. ولو مرة واحدة في العمر !

واحدة من الروايات عن زيارة مختار اليقظ لسلطان النوم النائم

هذه الرواية بالتحديد أكثر تماسكاًمن جميع الروايات الأخرى المتضاربه حول زيارة مختار يقظاً سلطنة المنام . وهي الأقرب إلى الواقع . أما معظم ما سمعناه من روايات غيرها ، فالتهويل فيها واضح ، والمبالغة جلية ومن ميزات هذه الرواية أنها رويت على لسان مختار مباشرة :

قيل - والله أعلم - إنني دخلت سلطنة النوم يقظاً . لم يحصل ذلك منذ فجر التاريخ ، بل منذ مساء التاريخ لم يحصل ، أن يدخل شخص صاح مستيقظ سلطنة النوم . لقد خالفت النواميس والشعائر والمألوف . لكنني فعلتها . فلكل ظاهرة جديدة لا عهد للبشرية بها بداية وبادئ . دخلت سلطنة النوم مدفوعاً بقوة متفاعلة متنافرة متناغمة من الأمل الجبار واليأس المدمر . لابد أن يستيقظ سلطان النوم ، وسلطنة النوم .

تصور ، أن ينام كل زعماء العالم إلى الأبد . الحروب التي بدأوها مَنْ سيضع حداً لها ؟ الرجال والنساء الذين أدخلهم هذا الزعيم أيام يقظته إلى المعتقلات ، من يجرؤ على أن يفرج عنهم ، إذا دخل الزعيم في غيبوبة ؟

وكالات الأنباء ستفلس . من أين ستأتي بتصريحات مثيرة إذا كان زعماء العالم نائمين ؟ لو نام كل الناس ، وظل الزعماء مستيقظين لاستوعبنا المشهد . أما أن ينام زعماء العالم ويتركوا البشرية في منتصف حروب ضروس ، أو بلا حروب ، أو بلا صور تعلق على الجدران .. هذا مستحيل !

لكنني أعتقد أن هذه المقارنة تعاني من خلل منطقي ، فسلطان النوم يفرض النوم على كل من لا يقيم في سلطنته ، وبالتالي فإن بقاءه على قيد اليقظة على مدار الساعة أمر جوهري. . ولكن ما علاقة هذه الحقيقة بيقظة زعماء عالم الواقع ؟ هل من الضروري أن ينام زعماء الواقع والحقيقة إذا نام سلطان النوم ؟

لا .. قيل - والله أعلم - إنني وضعت السؤال بطريقة مختلفة تماماً :

- إذا كان واجب سلطان النوم أن يظل مستيقظاً على مدار الساعة ، فهل يعني ذلك أن سلاطين اليقظة ينبغي أن يظلوا نائمين على مدار الساعة ؟

لا طبعاً . سلاطين اليقظة ، أي زعماء العالم ، ينبغي أن يظلوا معظم وقتهم يقظين ، فثمة أزرار صواريخ نووية في هذا العالم . وبالتالي فإن سلطان النوم ينبغي أن يظل معظم وقته نائماً !

لكن ليس هذا واقع الحال . قد تكون هذه المعادلة منطقية واقعية . لكنها ليست كذلك ؛ لأن نوم سلطان النوم وكائنات سلطنته ، يعني أرق الناس . يعني أن أبواب السلطنة مغلقة موصدة ، وأن الذي يداهمه النعاس لن يستطيع أن ينام . فسلطان النوم هو الذي يفرض على المرء لحظة النوم . لا يؤخرها ثانية ولا يقدمها ثانية . ولذلك يقول الناس إذا شعر زعيم بالنعاس في ذروة مؤتمر صحافي : النوم سلطان يا عمي . حتى الزعيم لا يستطيع أن يقاومه. وسيقف ناطق رسمي ويعتذر للصحافيين ويختلق أي أكذوبة لجر الزعيم إلى أقرب سرير . وهذا ينطبق على كبار المغنين والممثلين والممثلات وعارضات الأزياء . فنحن لا نتكلم في السياسة فقط .

حراس السفارات ممكن أن يناموا أثناء وقت الحراسة مثلاً . تصور .. أي كارثة . لكن حراس السفارات بشر وإذا أقبل سلطان النوم بكل قوته ، استسلموا دون مقاومة . فالمعركة محسومة ولا داعي للخسائر .

دخلت سلطنة النوم . كانت الشمس مطفأة ، وعيون الكائنات مغمضة ، وعصور النهضة واليقظة ترسل شخيراً يزعزع أركان القلب. الخفافيش نائمة . الحانات مغلقة . حراس قصر السطان نائمون . ساعات الجدار تتنفس بانتظام تنفس النائم ، وتتقلب تقلب النائم القلق. الزمن كله في مهب السبات . سلطان النوم نائم. يغفو كأنه دخل في غيبوبة. بحار السلطنة غفت ونسيت تحريك أمواجها فباتت جاثمة كالجثث. الحرائق نامت أيضاً. انطفأت، عيون الشعر والأدب والفن. عين العقل. عين الصواب. كل شيء نائم حتى دورة النهار والليل .

انحنيت قرب السلطان قلت له إنني بحاجة إلى مساعدته . إننا جميعاً بحاجة إلى تدخله في حياتنا لحل كل مشاكلنا . ناشدته :

- أفق .. وانزل من عليائك .

كان سلطان النوم راقداً على فراش وثير . متخذاً وضع جنين في رحم أمه . خمنت أنه يعاني من برد فغطيته .

ويقال - على ذمة الرواة .. وهي واسعة أحياناً - إنني لكزته بيدي وهززت كتفه . لكنه فتح فمه و لم يفتح عينيه . فهمت أن الرجل لا يمانع الحديث وهو نائم . لكن ، هل حديث النائم يتمتع بالحد الأدنى للصدقية ؟

وهل من اقتراح آخر ؟

سألته :

- يا سلطان النوم المبجل ، كيف تنام ، وتغلق في وجوهنا بوابات سلطنتك ؟

أرسل شخيراً متقطعاً . ثم قال بعد أن انقلب على ظهره :

- كل ما يوجد في سلطنة النوم متوافر في عالم يقظتكم . النعيم الموجود هنا ، له نظائر عندكم . والقبائح الموجودة هنا ، لها نظير عندكم . لقد بتنا عبئاً .. والعالم يتطور .

سألته إن كان يحلم . أطلق ضحكة مجلجلة وفتح فمه على اتساعه . امتلأ فمه بالضحك . عيناه مطبقتان . قال :

- نحن نحلم بكم مثلما تحلمون بنا .

قلت له يائساً :

- كنت السند والمعين . كنت ملجأ العشاق وملتقاهم إذا ضاقت الأرض بهم .

قال مستنكراً :

- وماذا عن الثورة التكنولوجية؟ ألا تنقلك طائرة الكونكورد من عمان إلى فرنسا بساعتين ؟ ألا تستطيع طلب اللجوء السياسي ؟ ألا يوفر لك الكمبيوتر وعالمه خيالاً جديداً يدخلك في عوالم ، لا أستطيع مجاراتها في عمقها الأسطوري وبعدها الخرافي . لقد تجاوزنا الزمن يا بني . وخير لي ن أعتزل وأتقاعد في عزي ، على أن أعزل عزلاً وأنحى بالقوة من قبل علماء العصر الجديد ! ألم تكن تأتيني ، أنت نفسك ، بعد تناول قرص فاليوم مثلاً ؟ قبل قرن من الزمان كان الناس يطرقون أبواب سلطنتي بشكل طبيعي ، يرهقهم العمل ، تطلب أجسادهم الراحة ، يطرقون بابي . بلا أقراص منوم ، ولا أجهزة تخدير متطورة .

لقد بدأت أتبهدل يا أخي الصغير . كان المريض يطلب أن تبتر ساقه التي انتشرت فيها " الغرغرينا " وهو في عز النوم ، بضربة واحدة حتى لا يداهمه الرعب . ولا يحدد ليلة معينة . فيأتي شقيقه بعد أسبوع أو شهر ، ويبترها وهو نائم على حين غرة . أما اليوم ، فثمة مخدر . ثم ما الذي نستطيع أن نقدمه من عجائب ، بعد أن اخترعتم هذا الكمبيوتر الذي صار يركب صورة ابن آدم على جسد حيوان . أو يظهر الرئيس جون كيندي وهو يصافح أحفاد أحفاده؟ هذا كله على سبيل المثال .. فاتركني ولا تفتح جراحي . قلت لك، لقد تجاوزني الزمن . صرت تقليديا محافظاً . هل تدري أن العلماء

يحاولون أن يجدوا الآلية العضوية المسؤولة عن النوم ليعبثوا بها كما يعبثون بالجينات ؟ وهذا اعتداء على سيادتي وحرمة صلاحياتي هل تعلم أنهم يفكرون بتغيير ساعات النوم لتلائم كل حالة على حدة ؟ هذا يعني أن العلم بدأ يتحكم بكل شيء . ومن أوائل العوالم التي بدأ يسحب منها صلاحياتها عالمي أنا . بعد عقد من الزمان أو أقل، سوف تتمكن ، من خلال الثورة التكنولوجية والتقدم في العلم أن تختار الاحلام والمنامات والكوابيس التي تشاء .

ما فائدة بساط الريح في عصر طائرات تخترق جدران الصوت، أو طائرات الشبح التي لا يرصدها الرادار ؟ ما فائدة طاقية الإخفاء مع تطور هندسة الجينات ونقل مبدأ طائرة الشبح إلى الإنسان . ما فائدة مصباح علاء الدين ومارده السحري ؟ لقد أصبح الكمبيوتر المتطور هو مصباح علاء الدين يا عزيزي . فلأهبط من الحلبة في عزي قبل أن أتبهدل وتخدش كبريائي .

ولكن بما أنك الحبيب ، ابن الحبيبة ، فبوسعك أن تطلب مني أمنية أخيرة . فأقول لك :

– سمعاً وطاعة يا سيدي .. ثم تراها أمامك وبانتظارك ما إن تعود إلى عالم اليقظة . إحتار مختار وارتبك . فسلم الأولويات عنده مزدحم . والأمنيات كثيرة ، والتساؤلات أكثر .

كانت الثواني تمر ، والسلطان يتوغل في الأعماق السحيقة لعالم الغيبوبة . هتف مختار دون روية ولا تفكير ، وكأنه اختار أمنيته بطريقة عشوائية :

– أتمنى لقاء هادئاً مع " الزوج " ... أقصد زوج هبة . لقاء

حضارياً ، تضمن فيه عدم خروجه عن طوره . وسحب مسدسه واطلاق النار عليَّ انتقاماً لشرفه الرفيع . فأنت تعلم أن حبنا أنا وهبة ، ولقاءاتنا ، لم تكن عادية .

إبتسم السلطان إبتسامة نائم يرى في منامه ما يبعث على الضحك . قال :

- شبيك لبيك عبدك بين يديك .. سمعاً وطاعة يا عزيزي.

وعاد السلطان ليشخر شخيراً يهز الجبال الرواسي ويضع أصبعين في أنفه وأصبعين في أذنيه .ولكن لا لينكش أنفه هذه المرة . وإنما لأسباب استعصت على فهمي .

◆

لقاء العشيق والزوج

تتعدد الروايات هنا أيضاً . لكننا نختار الراوية الأكثر إقناعاً وتماسكاً منطقياً . قيل - والله أعلم - إن السلطان أمر أن يعقد اللقاء على حافة الحلم .

تعزيزاً لنظرية توازن القوى الاستراتيجي . فلو اجتمعا في عمق عالم اليقظة لابتلعه الزوج دون حاجة إلى مضغ أو شوكة أو سكين. فالرجل فهلوي عبقري لا يجارى . موقع اللقاء مهم جداً . ينبغي أن لا يلعب الزوج في ملعبه ، ينبغي أن يلعب في ملعب أقرب إلى مختار. بل ملعب منحاز إلى سلطان النوم .

أقبل الزوج من بعيد يرتقي الشارع المؤدي الى رأس الجبل صعداً . كان يرتدي بدلته البيضاء الفاخرة ، وجوارب بيضاء ، وحذاء أبيض . رفع رأسه شاهد مختار يقف على رأس الجبل . دس يديه في جيبيه ، ومشى صعداً وقد بدأ يلهث . كان هذا أحد

شروط اللقاء : أن يأتي الزوج إليه . لا أن يذهب مختار إلى الزوج . ولا أن يلتقيا في موقع وسطي . كان الشارع الذي يرتقيه الزوج مقفراً ، لكنه مواز مباشرة لشارع مزدحم . وكان هذا أيضاً شرطا فرضه سلطان النوم . منذ أن أصبح كلاهما في المجال الحيوي لبصر الآخر. راح كل منهما يدرس ملامح الآخر ، ويحاول قراءة عينيه . إلا أن مختار انتفض مضطرباً حين رأى الزوج بلا ملامح . كان اسمه شائعاً ووجهه مألوفاً إلى حد النسيان الفوري .

إنه أقرب إلى النظرية العنصرية التي تقول إن جميع الصينيين أو اليابانيين متشابهون بحيث لا تفرق بين دليلك الذي رافقك يوم أمس. ودليلك الذي سيرافقك اليوم .

قيل لمختار الاسم المستعار الذي سيحمله الزوج في اللقاء ، لكنه تبخر من ذاكرته . كان اسماً يتأبى على ذاكرة واهنة مثل ذاكرة مختار . كان اسماً شائعاً دارجاً إلى درجة تشكل مشقة حقيقية في حفظه كأن تقول : عبد الحميد ، محمد ، أحمد ، محمود .

لابد ، حتى لأصحاب الذاكرة المتوهجة أن يلتبس عليهم الاسم . فإذا قرروا الأخذ بالاسم الأول والأخير ، اختلط عليهم اسم محمد ومحمود لتشابه حروفهما وإيقاعهما . وإذا قرروا التركيز على الاسمين الأول والثاني فقط ، اختلط عليهم الأمر ؛ لأن عبد الحميد تسبق محمود . فمحمود عبد الحميد أقل مشقة من عبد الحميد عبد الرحيم .

المهم ..

التقيا على حافة الحلم . كان " الزوج " يصعد بخطى

مدروسة بعناية منذ البداية . بحيث لايصل القمة لاهثاً يتصبب عرقاً. وكان مختار يحدق في عينيه مباشرة ، كما أشار عليه السلطان ، ويردد في نفسه :

– أنا الذي أمليت شروط اللقاء . أنا الأقوى . أنا صديق السلطان ، وهو حشرة مقطوعة من شجرة . أنا ابن عائلة أرستقراطية عريقة ، وهو نبتة طفيلية . كان المخطط المحكم يقضي بأن يتصافحا ، ويمشيا على حد الحلم الدقيق الحساس الفاصل بين الوهم والواقع ، مما قد يعني أن أحدهما سيمشي أمام الآخر ، لا جنباً إلى جنب . وهذا يقتضي أن يتبادلا المواقع كل خمس خطوات، فيتراجع الأمامي إلى الوراء ، ليحل محله الآخر وهكذا دواليك .

بعد زمن بدا طويلاً وصل الزوج إلى القمة .ما كان يلهث ، ولا يتصبب عرقاً . كان وجهه عادياً شائعاً إلى درجة عدم القدرة على تمييزه اطلاقاً لو افترقت عنه بعد لحظات . لكن سطوعاً باهراً غامضاً كان يشع من عينيه . لم يهدر وقتاً . إذ سكب نظراته في عيني مختار بحركة مباغتة وقبل أن يتبادلا التحية . فغدا مختار في موقف دفاعي من اللحظة الأولى . فأنت لا تستطيع أن تصب ماء وعائين في حركة تبادل في لحظة واحدة . خصوصاً إذا كانت نوعية النظرات ومادتها الخام مختلفة بين الرائيين .

حين باغت الزوج مختار بصب نظراته في عينيه ، لم تعد عينا مختار قادرتين سوى على لعب دور المصب . الزوج اختار المبادرة بالفعل ، بوغت مختار ، فلم يبق له خيار سوى رد الفعل السلبي . وعجز هو أن يسكب نظرة واحدة في أي من عيني الزوج . فنظرات

هذا تنسكب كشلالات هائلة في عيني مختار . حتى بدت عينا مختار وكأنهما بئر يستقبل ولا يرسل . أو شارع ، نُظِمّ السير فيه باتجاه واحد .

لقد خسر الجولة الأولى بلا جدال .

مد الزوج وصافح يد مختار . شعر مختار أن الرجل لا يصافحه مثل بقية العالم والناس ، وإنما يقرأ بأصابعه خطوط كفه . كأن الزوج عراف يقرأ شخصية المرء عبر قراءة خطوط راحته باللمس وليس بالبصر .

قال الزوج :

- هل أنت مختار ؟

(هذا السؤال يعني أن الزوج لم يكن يعلم من قبل هذه اللحظة هوية الآخر ، على عكس ما جاء في بعض الروايات) .

هز مختار رأسه إيجاباً و لم يحاول التأكد من اسم الزوج لأنه لم يعد يعرف إن كان محمود عبد الرحيم محمود أو عبد الرحيم محمود أحمد .

سأل الزوج وهو يبتسم ابتسامة مقامر محترف :

- إسمح لي أن أسألك بكل تهذيب عن طبيعة المكان الذي نقف عليه . لقد أمليتم علي شروطاً صعبة . إنني لا أعرف أين أنا. مع أن كل المؤشرات تدل على أن هذا هو رأس قمة الجبل الذي سقط فيه رأسك سيد مختار . لكن المؤشرات الظاهرة على السطح ، لا تنطلي علي . أريد أن أعرف المكان المضمر الذي نقف عليه . وهذا حقي.

قال مختار وقد تنفس الصعداء حين اكتشف تهذيب الزوج ومبالغته في مراعاة اللياقات والآداب حتى انه كاد أن يثق به ويحبه من اللحظة الأولى، لكن السلطان حذره. وهبة حذرته. قال إنهما يلتقيان على حافة الحلم. تلفت الزوج حوله واستخرج سيجاراً دقيقاً طويلاً ولكن فاخراً و لم يشعله. سأل :

- لماذا تقول " على حافة الحلم " .. أليست حافة الواقع هي حافة الحلم ؟ إذن ، لماذا على الحدود الفاصلة بين الواقع والحلم ؟

أطرق مختار ملياً . أحس باضطراب مفاجيء . أخذ نفساً عميقاً كما نصحه السلطان . قال بصوت يداري الاضطراب الهين :

- حافة الحلم ، ليست الحدود الفاصلة بين الحلم والواقع . لا أريد أن أغشك أو أن أتلاعب بالالفاظ . أريد أن تكون ألفاظي دقيقة ، حتى تسود روح الصدق والأمانة والفروسية النبيلة أجواء هذا اللقاء . لكن من حقك أن أشرح لك بكلمتين مفهوم خط الحلم أو حده . الحلم حاضر في الواقع لا خارجه . نحن إذاً في الواقع ، لكن الواقعي يحلم أيضاً . هل رأيت واقعياً عاجزاً عن الحلم؟ قد لا يحمل الحلم على محمل الجد ، هذه مسألة أخرى . لكن الواقع عامر بالأحلام . وكل البشر يحلمون . والحلم هنا لا يعني المنام . إنه يعني التغيير أو البديل أو .. باختصار إنه يعني استبدال واقعنا نحن الثلاثة : أنا وحضرتك والسيدة هبة ، بوضع أوضح فنبطل مفعول قلقه وازعاجه وتشويشه واختلاط الأوراق .

لاحظ مختار أن الزوج لم يشعل السيجار . انتظر قليلاً . ثم

خمن أن الرجل فقد ولاعته أو نسيها ، وإنه يخجل من طلب ولاعة من " الآخر " . استخرج مختار ولاعة ، وابتسم ابتسامة عريضة فيها حرارة غير متأنية ، تكاد تكون متهورة . لكن الرجل هز رأسه ومنكبيه وقال وهو يبعد السيجار الصغير عن فمه إنه لا يرغب في إشعاله الآن .

قال الزوج بعد أن ملأ عيني مختار بنظراته حتى طفحت :

- هل لديك جدول أعمال أو خطة محددة ؟

لاحظ مختار أن الزوج نقل نظراته الآن بعد أن تفقد أعماق مختار بها ، إلى أصابعه . لعله يريد أن يستيقن من منبته الطبقي . أو من حالته النفسية . فيرى إذا كانت ثابتة أم مرتعشة ، لكن مختار حرمه من هذه الفرصة ، وأخفى يديه في جيبيه .

اقترح الزوج على مختار أن يتمشيا . تذكر مختار وصية السلطان وإرشاداته . قال إنه لا يمانع في المشي ، لكن إذا مشيا ، فسيمشي أحدهما أمام الآخر ، ثم يمشي الآخر أمام الأول ؛ لأن حد الحلم دقيق وحساس .

امتلأ فم الزوج بالضحك . أعاد السيجار الرفيع إلى فمه وبدا وكأنه يمضغ قاعدته . قال بصوت طروب :

- لنجرب . لن نخسر شيئاً . تفضل أنت أولاً . لا والله . حلفت يميناً . العفو . مشى مختار في المقدمة تتنازعه مشاعر التخوف والطمأنينة . التخوف لأنه لا يحب أن يشعر أن أحداً خلفه يراه ويتفحصه ، بينما هو لا يستطيع أن يراه إلا إذا التفت . والالتفاتة كل دقيقة تشي بالتوجس . ومختار لا يرغب في أن تستشعر قرون

استشعار الزوج هواجسه . وشعر بالاطمئنان لأنه يطمئن ويرتاح للشخص المهذب الذي يتكلم بلياقة ولباقة فيهما غلو .

ولعل هذا سبب إعجاب مختار باللهجة الانكليزية التي تستخدمها الارستقراطية الانكليزية ، وخاصة الحاجب ، أو مدير المنزل الذي يسمونه " بطلر " . انه التهذيب والكياسة في نقائهما الحازم .

أحس بكلمات الزوج تلسعه على رقبته . هل يعقل أن يكون قريباً إلى درجة أن أنفاسه تلسع قفا عنقي . قال الرجل :

- سألتك إن كنت قد أعددت خطة أو جدول أعمال ؟

التفت مختار ، فرأى مسافة معقولة ومقبولة جداً بينهما . أدهشه إحساسه بلسع كلمات الزوج على رقبته .

أمام مختار أفق من الخواء ، شارع خريفي مقفر تتطاير فيه أوراق أشجار مسنة متهالكة شاحبة . جاء الصوت الواثق الصارم المهذب من الخلف :

- ماذا تريد من زوجتي .. أستاذ مختار ؟ اضطرب مختار. باغتته صراحة ومباشرة الزوج . ظن أن الحديث في مثل هذه المواضيع الحساسة والخطيرة في الشرق لا تحتمل الصراحة المطلقة والجرأة المباشرة . إرتج على مختار لوهلة . كان بحاجة ماسة إلى بضع ثوان كي يعيد تنظيم أفكاره . لكن الزوج لم يمنحه هذه الفرصة ، وإنما عاجله بسؤال آخر :

- هل تشعر أنك تتمتع بحق عشق امرأة متزوجة ؟

انتبه مختار إلى أهمية الوقت ونهب فرص المبادرة إلى الحديث

وسأل :

- وهل حرمت قوانين الدول ، أن يحلم الإنسان بمن يريد ومتى يريد وكيفما يريد ؟ الحلم حق من حقوق الإنسان مثل الهواء وحرية التعبير .

رد عليه الزوج بسرعة فائقة :

- ألم تقل إن الحلم موجود في صلب الواقع ؟

انتبه مختار فجأة إلى أن الزوج يصوغ جمله كلها على طريقة السؤال . مما يؤمن له دوراً متفوقاً . دور المحقق أو الممتحن . فقرر أن يقتدي به . سأله :

- لكن الحلم حق من حقوق الإنسان . لا يوجد مخلوق يملك سلطة تحريم أو حظر بقعة واحدة من بقاع الحلم ، هل أستطيع أنا أن أحرم عليك أن تحلم بشخص معين ؟ بل هل تستطيع أنت أن تحظر على نفسك الحلم بشخص معين ؟ هل تتحكم بنفسك إلى هذا الحد ؟

ارتاح مختار لوابل الأسئلة التي قذفها في وجه الزوج . لكنه انتبه بعد لحظة ، أنه لا يرى كيف انعكست أسئلته التي أخذت شكل القصف المركز على وجه " الآخر " .. هل اضطرب ؟ هل ارتبك ؟ أم ظل محافظاً على ثقته وسكينته الداخليتين .

فخرج عن وصية مهمة من وصايا سلطان النوم ، غير قادر على مقاومة مراقبة انعكاس أسئلته على تعابير وجه الآخر ، فبادر إلى طرح اقتراح قبل أن يجيب الزوج . قال :

- أقترح تعديل قرار المشي كقافلة في طابور . أقترح تعديل

الاقتراح . أقترح أن نمشي جنباً إلى جنب .

قال الزوج من فوره :

- عين العقل .

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى لم يفهمه مختار . وإذا به يتجرأ ويشبك ذراعه بذراع مختار ويمشيان جنباً إلى جنب . وإذا كان مختار قد اضطرب في الوهلة الأولى ، إلا أنه رأى في هذه الايماءة . أو المبادرة ، عرض صداقة و هدنة نبيلة على الأقل . افتر ثغره عن ابتسامة مشرقة . وراح يراقب أوراق الأشجار والرياح الرخية الهينة تعبث بها برفق .

تناول " الزوج " ولاعة أنيقة من جيبه . توقع مختار أن يشعل سيجاره . إلا أنه لم يفعل ، أبقاها في يده . وأبقى السيجار في فمه. وتوقع مختار ، مرة أخرى ، أن يشعل الزوج السيجار بعد دقيقة أو دقيقتين ، فركز بعض نظراته على يد الزوج التي تحمل القداحة ، وبعضها الآخر على السيجار . لكن الرجل لم يشعل سيجاره . قال وهو يحدق في خطواته :

- ما رأيك في أن نتجاوز حد الحلم بخطوة أو خطوتين ؟ أحب أن أرى عالم الحلم وأنا يقظ . ثم أنني أرى أنك شخص حضاري متحرر مثلي ، غير متزمت والدليل على ذلك عدم تمسكك بشرط المشي واحداً وراء الآخر . إنه شرط سخيف . ولا شك أن أفقك واسع غير متزمت غير متشبث بالنصِ الحرفي .

بعث هذا الاطراء غير المتوقع الثقة والحذر معاً في نفس مختار. عاد مختار يراقب يد الزوج كلما ارتفعت معتقداً أنه سيشعل

السيجار . لكن الـزوج كـان يؤشـر بيـده ليؤكـد معنـى كلمـة مـن الكلمات ، و لم يكن هدفه من رفع يده نحو فمه اشعال السيجار .

قال مختار إن سلطنة المنام نائمة . أما عالم حلـم اليقظـة ، فـلا حاجة لهما به ، وسأل الزوج :

- أم أنك تعني عـالم الاحـلام اليوتوبيـة .. مثـل إقامـة المدينـة الفاضلة ؟

رفع الزوج يده . توقفت قدماه تماماً عن الحركـة ، ثـم غطـى بيده الأخرى طرف السيجار ليجنبه هبات الريـح الوئيـدة . فأشـعل السيجار . أخذ مختار على حين غرة ، لكنه تنفس الصعـداء . فقـد تخلص من حالة التوقع والانتظار .

قال الزوج إنه يحب أن يـرى سـلطنة النـوم نائمـة . وإنـه قـد يكـون لذلـك علاقـة بـالتقدم التكنولوجـي الهـائل . بـل بـالثورة التكنولوجية المتطورة السريعة ، فقد تجاوز الزمـن أسـاليب سـلطان النوم ومفاهيمه وذهنيته التي كانت سائدة في العصـر الزراعـي ، ثـم استمرت دون تجـدد أو تطـور ، في عصـر الثـورة الصناعيـة . وقـد استطاعت أن تحافظ على سطوتها في عصر الثورة الصناعية دون أي مشكلة . لكن الزمن تخطاها في عصر الثورة التكنولوجية .

امتقع وجه مختار . تبعثرت نظراته كأنها تـاهت أو شـردت . وانعقد لسانه في فمه فلا ينبس . يا إلهـي . انـه يكـرر الكـلام الـذي قاله سلطان النوم .

أخذ مختار يتأمل ملامح الـزوج لعلـه يقـرأ سر هـذه " الحالـة الحضارية " الاستثنائية التي يشكلها لاشك في أنه رجل واسـع الأفـق

وواسع الصدر وشديد الذكاء . سأله مختار ان كان قد درس في جامعات بريطانيا أو أمريكا . فأجاب الزوج وهو يدفع مختار دفعاً هيناً نحو بقعة ظليلة داكنة ، أعتقد انها قد تكون بوابة عالم الحلم :

- نعم . لدي شهادة من أكسفورد وأخرى من هارفارد .

(طبعاً ، لم يقل الزوج إن الشهادتين مزورتان مثل معظم حياته.) هيا .. دعنا .. ندخل خطوة في عالم الحلم .

إبتسم مختار ابتسامة عريضة وقال إنهما دخلا خطوات في عالم الحلم دون أن ينتبه الزوج . قال مختار :

- إننا في عالم الحلم الآن .

سطع بريق يأخذ الأبصار من عيني الزوج وأرتج عليه . لأول مرة في حياته يداهمه إحساس بالارتباك . فالزوج حالة استنفار دائمة ، وحذر متصل ، لا يباغته أمر ، ولا يصدمه نبأ . لكن ، وجوده يقظاً في عالم الأحلام الواقعي أربكه تماماً ، مما جعله يثبت قدميه في الأرض ولا يتقدم خطوة . فرجل عبقري الدهاء مثل "الزوج" يعد نفسه إعداداً محكماً قبل أن يقتحم أرضاً مجهولة . وهذه سياسة عامة ، أو قاعدة لا تقبل الاستثناء . فالمجازفات محسوبة بدقة ، " الزوج " لا يقامر ولا يغامر ، الزوج يجازف ؛ لأن المجازفة فقط قابلة للحساب ، على عكس القمار ثم المغامرة .

تفقد الزوج " محيطه " بنظرات محترفة . والحق أن كل حواسه شاركت في سرعة خاطفة بتفحص المكان . نظراته المحترفة (ونظرات فنية) درست الموقع الطبوغرافي واهتمت بالتفاصيل . فطارت فوق كل وهاد عالم الحلم ونجاده وبحاره وجباله وصحاريه ومدنه

وشـوارعه . ثـم عـادت بمعلومـات أوليـة سـريعة ولكنهـا في غايـة الخطورة . أنفاسه ، أيضاً ، انطلقت مثل زفير خرافي وتوزعت علـى النبات والجماد والأحياء وتنشقت الهواء والفضـاء ، وكـانت بعـض الانفاس المتخصصة تخصصاً رفيعاً ، تسكب قطرة من مياه البحـر ، أو النهر ، أو شلالات العصارات والسوائل المجهولة على قفـا أيديهـا وتشمه كما يفعل الخبراء مع زجاجات العطر .

بكلمة أخرى ، انطلقـت كـل حواسـه فرصـدت أجـواء هـذا العالم رصداً أولياً ، ومسحته مسحاً شاملاً ثم عادت إليه بمعلومـات قيمة مدهشة مذهلة . وظل واقفاً ثابتاً لا يتقدم خطوة ، حتى انتهت هذه العملية .

التفت إليه مختار وسأله ببراءة :

– لماذا توقفت ؟

قال " الزوج " :

– لأمتع ناظري بهذا المشهد العجيب .

قل الزوج وهو يتوقف عند كل زهرة فيشمها :

– اسمع ، دعنا ندخـل الموضـوع مباشـرة . مـاهو مفهومـك للحب أو بالأحرى ، لممارسة الحب ؟

ارتبك مختار ، فالسـؤال عميـق ومعقـد . أدرك الـزوج الـذي التفت إلى مختار يقرأ ملامح وجهه أنه إرتبك وتاه . فساعده قائلاً :

– سوف أيسر عليك الأمر وأكـون جريئـاً كعـادتي . . هـل تنظر إلى ممارسة الحب كمبارزة وتحد ونـزال ؟ أم أنـك تـرى فيهـا أخذاً ورداً وحواراً طويلاً لا ينتهي إلا حين يصل الطرفان إلى نتيجة

مشتركة . بكلمة أخرى ، هل الحب في عينيك حرب فيها غالب ومغلوب ، أم حوار أنداد يخرج في الغالب الأعم بصيغة اللاغالب واللامغلوب ؟

رد مختار دون تردد :

- بل حوار واسع الأفق ، يجري في أجواء من الحرية الكاملة، دون استعجال . حيث يعبر كل طرف عن نفسه كما يشاء ، وبالطريقة التي يرغب ، إلى أن يصل هذا الحوار والتواصل بين الطرفين إلى صيغة التفاهم الكامل . التواصل العام . وهي نوع من الصيغة العادلة المنصفة الذي تمنح كل طرف حقه .

خرج الزوج عن طوره فجأة وقال :

- هذا إنشاء .. هذا جبران خليل جبران .. هذا شعر غير مفهوم . الحياة حرب واحدة ذات ألف معركة ومعركة . سوف أفهم من كلامك انك تؤمن بالتواصل بين المرأة والرجل على أنه يهدف إلى الوصول لتوازن القوى ، وصيغة اللاغالب واللامغلوب ، وتوازن الرعب .

إسمح لي أن أنفعل قليلاً . الانفعال ليس من طبيعتي ، لكنني رجل يعيش عصر الثورة العلمية ، وحين يسمع مصطلحات تمت للعصر الزراعي ، أي ما قبل الصناعي ، الذي بدأ قبل عشرة آلاف سنة من ولادة المسيح فإنني أنفعل .

أخذ الزوج نفساً عميقاً . ثم عاد إلى طبيعته . اعتذر لمختار بتهذيب مبالغ فيه وقال :

- أول مرة أخرج عن طوري منذ عشرة أعوام ... أكرر

أسفي واعتذاري . لاشك أنك من المعجبين بجبران خليل جبران ، أنا أعتذر إذا كنت قد أسأت إليه أيضاً .

هز مختار رأسه وربت على كتف الزوج وشعر أنه رجل قديس . رجل يستحق الاحترام والتقدير . رجل لا ينتمي إلى عالمنا. تصور ، أن يناقش زوج يشك في علاقة بين زوجته ورجل آخر .. الرجل الآخر بهذ الهدوء ، وهذه الروح الحضارية .

رفع الزوج رأسه وقال إنه يحب لو يعرف كيف يتم الاتصال بين هذا العالم والعوالم الأخرى بدقة وتفضيل . فالاتصالات هي محور اهتماماته كلها . قال :

– نحن نعيش عصر ثورة الاتصالات . مثلاً ، كيف تتصل بسلطان النوم . أعرف أن هذا الامتياز لا يحصل عليه أي شخص . مثلاً ، المواطن العادي يتصل بهاتف الوزارة المتوافر في دليل الهاتف إذا أراد أن يكلم وزيراً . فيرد عليه " السنترال " وبعد أخذ ورد وتحقيق يحيله إلى مدير مكتب الوزير أو سكرتير الوزير . ثم يبدأ الاستجواب المهين :

– ماذا تريد يا أخي من معاليه ؟ معاليه في اجتماع . معاليه خارج المدينة . أترك اسمك ورقمك ، وحين يعود سنتصل نحن بك.. الخ ..

أما أصحاب الوزير فعندهم الرقم المباشر الذي يرن على هاتف طاولة الوزير مباشرة . ونخبة النخبة يملكون هاتفاً نقالاً خلوياً.

سكت الزوج وأطرق كأنما يصوغ عبارة بدقة متناهية.

وتوقع مختار أن يسأله عن طريقة اتصاله بسلطان النوم . غير أنه قال:

- أنت تحب صوت زوجتي أليس كذلك ؟ يعني أن بعض الرجال يكون مدخل المرأة إلى قلوبهم من خلال عينيها أو شعرها أو جاذبيتها أو جمالها العام أو طريقة كلامها . لكن مدخلك أنت صوتها أليس كذلك ؟ صوتها يسحرك ، يبعث الفتنة في أعماقك .

اختلطت الأمور على مختار . من أين يستمد الزوج كل هذا الهدوء وكل هذه العقلانية والموقف الليبرالي وهو يناقش علاقتي بزوجته ؟

طبعاً ، قد يكون اقتصار معظم لقاءاتنا على سلطنة المنام قد ساعد على تهدئة خواطره ، أو عدم انفجار بركان كرامته . وقد يكون عدم حدوث اتصال جسدي كامل بيننا عاملاً مساعداً . لكن، هذا الموقف كله ، بالنسبة لرجل عربي شرقي غريب بل ومستهجن ، مع أنه يثير احترامي للرجل على الرغم مني .

ما لم يعرفه مختار في تلك اللحظة ، أن هدوء الزوج هذا تكلف واصطناع ، مكيدة مدبرة . يريد أن يستدرجه إلى فخ لامخرج منه . فينتهي من " قضيته نهائياً " ، دون أن يضطر إلى قتله أو قتلها ، وقضاء سنوات في السجن .

قال الزوج وقد صفق بيديه ثم شبكهما معاً :

- اسمع يا أخي . هناك عدة حلول لهذا الوضع المعقد . إما أن تتصل بها مرة واحدة في اليوم ، أثناء غيابي ، فتصغي إلى صوتها ساعة أو بعض ساعة . دون أن تراها أو تراك . وإما أن تسجل

صوتها على شريط . وتسمعه كما يحلو لك طوال اليوم . على أن يدور كلامها حول مسائل عادية يومية مثل الطهو أو الطقس أو السياسة وما إلى ذلك . دون التطرق إلى الحب والمحبة والمشاعر والعواطف والتواصل . فأنت يا عزيزي من أولئك الذين ينظرون إلى التواصل بين الرجل والمرأة مثل نظرتهم إلى طريقة تناول الطعام الأرستقراطية ، ففي البداية ثمة مشهيات وكؤوس نبيذ وحوار وافتتاحيات تفتح الشهية . وهكذا يصبح الجو حميماً وأليفاً وناضجاً. ثم يبدأ تناول الطعام على ثلاث دورات أو دورتين . هنا تصل حرارة الماء في الوعاء إلى ذروتها . أقصد الوعاء الذي يغلي على نار خفيفة هينة ، يجلس حولها الطرفان ويتبادلان الحديث في أمور شتى إلى أن تزول حواجز الارتباك والخوف الخفية رويداً رويداً ، فتبدأ النار في الاتقاد ، تتأجج ، تغلي .. فيتحول الماء في القدر إلى بخار . أي يتحول التراكم النوعي إلى تغير كيفي .. إلى بخار ، وقد يتحول البخار إلى غيمة وقد تتحول الغيمة إلى مطر يسقط في البحر ، ثم تعود الشمس لتؤجج حرارته فيعود من حالة الماء إلى حالة البخار . وقد تنتهي الوجبة كلها في النهاية بتناول قليل من الحلوى أو الفواكه أو القهوة . هل فهمتني ؟

ضيق الزوج بين عينيه وإربد وجهه :

- يعني أنت وهبة نفسكما طويل . يبدأ الاعجاب بالصوت ، ولكنني أعلم أين سينتهي . بالنسبة لي أنا .. أنا صاحب نفس قصير. شعاري " أغز وانهب واركض " أنا من المؤمنين بالهجوم المباغت. قصف مكثف مباغت بالطيران والمدفعية ، تربك به الخصم ، ثم

يدخل المشاه ، فينهبون ويحتلون إذا شاءوا .

فتح مختار فمه ليحتج على الأمثلة المبتذلة التي يسوقها الزوج لوصف أرقى أنواع التواصل البشري . إلا أن الزوج كان صاحب مبادرات سريعة ، لا تترك للآخر فرصة التقاط الأنفاس :

- إسمع . سوف تتوقف علاقتكما عند سماع الصوت . أي عند المقبلات ، في مثال الوليمة ، أو عند درجة حرارة الشمعة في مثال غليان الماء .

أما اللقاءات في أي عالم من العوالم ، فلابد أن تتوقف . إلا.. في حالة واحدة . أن تقدمني إلى سلطان عالم المنام كي أقول له الكلام الذي قلته لك الآن . فأنا قادر ، بعلاقاتي الواسعة ، أن أحول سلطنته إلى سلطنة معاصرة حديثة أكثر إثارة من " ديزني لاند " و " هوليوود " . بوسعي تأمين أجهزة وكاميرات خفية ، لضمان أمن السلطنة ذاتها والسلطان نفسه من جهة ، ولأخذ عمولة ضخمة على الصفقة من جهة أخرى نستفيد منها أنا وأنت والسلطان . بوسعي تأمين رحلات يقظة إلى سلطنة المنام .تصور .. ملايين السياح يتدفقون يقظين على سلطنة المنام . أن يرى المرء ما لم يكن يراه إلا وهو نائم . أن يفك شفرة الرموز والأقنعة والألغاز والأحاجي التي تكتنز بها سلطنة المنام . ثم تصور تدفق العلماء والخبراء والفنيين الذين سيأتون بالمئات لدراسة ظاهرة سلطنة المنام من كل جوانبها . تخيل الاستثمارات الخيالية والأموال الخرافية التي ستتدفق على السلطنة .

عزيزي ، فلنكن صريحين وحضاريين . أمامنا فرصة ذهبية .

أنا وأنت وسلطان النوم . ندخل التكنولوجيا إلى سلطنة النوم، ننقلها إلى القرن الحادي والعشرين . نربطها بطرق واسعة وقطارات وطائرات مع عوالم الأرض .

- إنها فرصة العمر الذهبية .

وكما قلت لك ، مقابل ذلك أسمح لكما ، أنت وزوجتي ، بأي حديث ترغبان الخوض فيه على الهاتف . فقد توصلت شركات أمريكية متقدمة إلى اختراع أجهزة ضد تسجيل المكالمات الهاتفية ، ومضادة للرقابة عليها . عندئذ ، وطالما أنني لا أسمع ما تقولانه وما تتحدثان به ، لكما أن تختارا الموضوع الذي تشاءان . فلتذهبا إلى الجحيم وتتحدثان عن النجوم في عز الظهيرة ، ليس لي علاقة بمكالمات لا أسمعها ولا يسمعها غيري . . لكن إذا أردت تسجيلات صوتية ؛ لأن صوتها نفسه يثير لواعجك فأسمح بذلك شرط أن تتحدث هي في مواضيع عامة كالطقس والسياسة والاقتصاد والتلوث ؛ لأن لا وسيلة حتى الآن تضمن عدم تسجيل نسخ عن الشريط ، وتوزيعه على خصومي وابتزازي . ولا وسيلة تضمن لي ضياع الشريط منك ووقوعه في أيدي قذرة . ولا وسيلة تضمن لي عدم سرقة الشريط من بيتك . ها .. أستاذ مختار ، مابك ذاهل واجم ؟ ركز معي الله يرضى عليك ، ما رأيك بهذه الصفقة ؟ صفقة العمر الذهبية التي لن تتكرر .

تهدم وجه مختار . بدا وكأن قواه قد انحلت أو خارت . راح يردد بوجوم:

- صفقة ؟ صفقة !

قدر الـزوج أن مختـار لم يستوعب الاقتراح الجهنمي بعد ، وقدر أن رأسه يدور الآن . فقرر أن هذه اللحظة الفضلى لوضعه في خانة " اليـك " ، ودفعـه إلى الشـعور بأنـه محـاصر . أخـرج الـزوج ولاعة السجائر مرة أخرى ، لكنه لم يشعل السيجار . قـال بصـوت ذي نبرات حازمة حاسمة :

- وإذا رفضت هذه الصيغة ، وظـلّ إصرار كمـا قائمـاً علـى علاقة تسـميانها صداقـة حميمـة ، وأسميهـا خطـوة أولى نحـو الخيانـة الزوجية . فإنني سأقص لسـانها ، وأحولـك إلى أصـم لا يسـمع أي صوت . وقـد أرفـع عليـك قضيـة في المحكمـة فأنـا رجـل لي شـرفي وسمعتي.

سكت الزوج قليلاً ثم امتلأ فمه بالضحك حتى انثنى وانحنـى قال بعد أن تمالك نفسه :

- سيقول القاضي ما يلي : بما أن الوقائع تثبت أن مختار نهب صوت هبة الذي اقتناه زوجها منذ عقد القران ، ولم يثبت أنه نهـب جسدها ، فإنني أقرر أن يقدم المجـرم ، أي مختـار ، ظلـه إلى زوجهـا تعويضاً عن خسائر الصدى . فقد سرق مختار صدى صوت الزوجة واحتفظ به لنفسه . مقابل ذلك ، يقدم المجرم مختـار ظلـه إلى الـزوج ليصبح مالك ظله . فالاعتداء اقتصر على الصدى ، والضحية ينبغـي أن تكون الظل .

وفي روايـة أخرى أن سلطنـة النوم لم تنم . وأن حادثـة النوم هـذه من أساسـها خياليـة ومدسوسـة للإسـاءة إلى سـلطان النـوم شخصياً . وللإيحاء بأنـه استسـلم للشـيخوخة والانقـراض ، وإنـه لم

يعد يرى جدوى لمواصلة حياته وواجبه . وأن هذا التقصير في الواجب ، ولجوء سلطان النوم إلى النوم ، ينبغي أن يجعل سلطنة النوم تحت سلطة البشر والعلم والتكنولوجيا ، لا تحت سلطة سلطان النوم الشائخ الذي يعترف بنفسه أن الزمن قد تجاوزه .

يقال - والله أعلم - إن حديث الزوج أدخلني في حالة ذهول. كانت الصدمة أكبر من طاقتي . ويقال إنني كنت أردد كأنني أكذب أذني :

- صفقة ؟ صفقة ؟

وتقول إحدى الروايات المسندة ، إن الزوج طوق عنق مختار بذراعه ، ثم جعله يرقد على ضفة جدول ، وراح يغط رأسه في الماء البارد ، كي ينفض عنه حالة الذهول هذه . غط رأسه عدة مرت ، وأخرجه عدة مرات . فبدأ مختار يسترد وعيه ، ويثوب إلى رشده . انتهز الزوج تلك اللحظة ، حيث بدا مختار لعبة بين يديه . وقال :

- والآن .. خذني إلى السلطان .

فمشيا . اجتازا غابة التثاؤب ، وجبال النعاس ، وريح التمطي إلى أن وصلا القصر .واذا بالسلطان وهبة إلى جانبه في انتظارهما . عندئذ ، قال السلطان إنهما سمعا الحوار كله . وإنه يرفض تخلي سلطنته عن هويتها وثقافتها وفاعليتها التي ميزتها عبر التاريخ . وإنه لن يحولها إلى " ديزني لاند " أو مدينة ملاهٍ كبرى . ولن يطمس معالمها الأصلية .

أما وقد ابتز الزوج مختار وهدده ، فإن سلطان النوم يقرر الطلاق بين هبة والزوج . واستمرار العلاقة بينها وبين مختار ،

ولضمانـة سـلامتهما ، فسـيؤمن لهمـا جناحـاً مسـتقلاً في قصـــره ، يعيشان فيه . أما الزوج فليختر بين مصيرين :

- إما العودة إلى عالم اليقظة ، ومنع دخولـه سـلطنة النـوم الى الأبد . أو أن يحكم عليه بالإقامة الجبرية المؤبدة في وادي الكوابيس، الواقع ضمن حدود سلطنة النوم .

مختار وهبة بعد إقامتهما في سلطنة النوم

-١-

رأيت فيما يـراه اليقظـان أنـي أقـف ببـاب مقصـورة سـلطان النوم. رفع السلطان رأسه ، وكـانت ريـح شـرقية تـروح لـه القيـظ المندفع من نافذة الشرق ، وريح غربية تروح عنـه الحـر المنهمـر مـن أشعة الشمس المطلة من نافذة الغرب . إبتسم ابتسامة الترحيب ، ثم تطلع بنظرة الاستطلاع . فقلت :

- يا سيدي السلطان ، قد اشتقت إلى أمـي ، واشـتاقت هبـة إلى مدينتنا ، فهل تسمح لنا بمغـادرة سـلطنة النـوم ، لنقضـي إجـازة أسبوع أو بعض أسبوع في مسقط رأسينا ؟

أطرق السلطان طويلاً ، ثم أدار الرأي ورماه بنظـرات عاينتـه من خلف ومن أمام ، ومن شمال ومـن جنـوب ، ومـن شـرق ومـن غرب ، ومن فوق ومن تحت .

فرأى الاحتمالات من كل الزوايـا ، وشاهد الممكنات كلها

مجتمعة . فقال وهو يعبث بسبحته :

– إنني أرى جماعة الزوج يترصدون ، ويكمنون . وأرى أن فصل نوم الجراح والاحقاد وانقراضها لم ينضج بعد . فإذا أحرق الشوق نفسيكما ، اقترحت أن تحلما بعالم مدينتكما ، بينما يظل جسداكما هنا في حمايتي وتحت حراستي .

وسعت أصابع الذهول من عيني وفتحت ثغرة بين شفتيَّ هبة المطبقتين . قلت حائراً :

– وكيف يحلم نزيل سلطنة النوم بعالم اليقظة ؟

امتلأ فم السلطان بضحكة هزت أركان القصر من جذوره وقال :

– المسألة بسيطة . تفعلان ما يفعله الإنسان لدخول سلطنتي . ألا ينام الإنسان فيحلم فإذا به في سلطنتي ؟ وأنتما ، ماعليكما سوى أن ترقدا على سريركما في المقصورة التي خصصتها لكما ، ثم تحلمان بعالم اليقظة فإذا بطيفكما فيه .

– ٢ –

قبل أن نخرج إلى عالم اليقظة أعطانا السلطان خابية مليئة بالماء، وقال إنها هدية منه لأمي . إبتسم وهو يقول إنه كان يتوقع أن تزورنا هنا . وكشف عن سر كان يضمره . قال وقد بدت ابتسامة حزينة على شفتيه :

– لا أكتمكما أن أحد الدوافع التي دفعتني إلى تأمين اللجوء والإقامة لكما هنا ، يكمن في أمل أناني .

سكت قليلاً ثم عاد يعبث بسبحته وقال إنه كان يراهن على أن أم مختار، سوف تأتي كل ليلة لزيارتهما. وإنه كلف عيونه أن يخبروه فور رؤيتها، فيأتي ليزور مختار وهبة في منزلهما ولو مرة كل أسبوع فيتكلف أنه رأى أم مختار صدفة. ويحاول أن يقنعها بجولة معه في السلطنة. في داخل منطقة قصره الساحر العجيب، لعل الامكانات الأسطورية الخارقة الجديدة، التي زود القصر بها بعد رحيلها ترغبها في الاقامة فيه. أو تغويها على قضاء ليلة أو ليلتين كل أسبوع فيه.

حكيت له كيف ان أمي قاطعتنا بعد أن لجأنا إلى سلطنة النوم. ورويت له أنها ترى أننا ثلاثتنا، أنا وهبة والسلطان، ارتكبنا خطأً فادحاً مؤلماً بحق الزوج. وأنها ترى أنه لا يوجد قانون في الدنيا يمنح العشيق حق الهرب مع امرأة متزوجة، واختطافها من بيتها الزوجي، حتى ولو كانت هي ترغب في ذلك.

ضرب السلطان قبضته بمنضدة أمامه وهتف غاضباً:

- أمك تقليدية، محافظة، تعيش في القرون الوسطى.. رجعية!

-٣-

تناولنا خابية الماء، وسعينا نحو عالم اليقظة. عبرنا بضاحية الاسكان التي تسكنها الهموم. مررنا ببقالة بائع السحب والأمكنة والأزمنة. إنه رجل طيب. ولأن البيع والشراء غير معروف في سلطنة النوم فقد كان يعطي السحب للناس، مقابل بالون ملون،

أو دجاجة ورغيف وبيضة ، أو طاسة الرعبة على أن تكون أصلية . كانت بقالة بائع السحاب تتداخل مع عالم اليقظة ، فالسحاب الذي يبيعه ليس حافلاً بالمطر فقط . وإنما بالاحلام والأخيلة والوسائد والأسرة .

دخلنا محله ، اشتريت سحابة لأمي . سحابة أصيلة صافية بلا مطر ولا أحلام . قلت لهبة :

- سنقدمها لها هدية .. لعل قلبها يلين .

ورقدنا على سرير عريض في محل بائع السحاب والأزمنة والأمكنة . شددنا الأحزمة . ثم أغمضنا عيوننا وأقلعنا .

عثرنا على أنفسنا عند الباب الخارجي لمكتبة عمان حيث ينتظرنا ابراهيم كما اتفقنا . ابراهيم لا يزال يصر على عادته البغيضة إنه يلح على طبع عدة قبلات على وجهي كلما رآني . حتى لو رآني آخر مرة ليلة أمس . ووجهه مضرج بالعرق دائماً . وفمه فائح برائحة البصل والخمر . ربت على ظهري وهو يعانقني ويغدق عليَّ رائحة البصل والخمر وعرقه .

قال :

- فكرت أنني تأخرت عليكما ، وأنكما في الداخل . دخلت، فوجدت شلة الكتاب يتجادلون حول حقوق سلطان النوم وواجباته . لم أفهم شيئاً طبعاً . فخرجت .

ثم التفت إلى هبة وهمس وهو يصافحها :

- بدون تقبيل رجاء . لا تحرجيني أمام الناس .

مضينا مشياً على الأقدام إلى بيت أمي. بوغتت بنا و لم تباغت

رحبت شبه ترحيب ، وأعرضت شبه إعراض ، وابتسمت نصف ابتسامة . وأشارت إلى كنبات غرفة الضيوف و لم تنبس . لكنها تركتني أضمها وأقبلها . لم تقاوم ، ولكنها لم تقابل قبلتي بقبلة وضمتي بضمة .

بدأت هبة تحكي عن حياتنا في سلطنة المنام . قالت إننا نسكن في مساكن الحنين والشوق . فالمنطقة السكنية في السلطنة أقسام وفئات . ثمة مساكن تسكنها الهموم ، ثمة منازل يسكنها القلق ، ثمة منازل تسكنها البهجة ، وثمة منازل يسكنها الشوق ، اسمها مساكن الشوق والحنين . قالت إننا ننزل في بيت في ذلك الحي ، لأننا نحن إلى مسقط رأسينا . وقالت إننا اشتقنا إليها . توقعنا أن تزورنا وتلم بنا ولو مرة في الشهر .

تناولت سيجارة من علبة سجائر ابراهيم وأشعلتها . لأول مرة يرى مختار أمَّه تدخن. قالت إن الدنيا حر . التفتت إلى الخابية التي وضعها مختار عند المدخل الداخلي للبيت . رمقتها بنظرات واهنة ذابلة . قال مختار :

– انها هدية لك من سلطان النوم .

دنت منها بحذر . فتحت الغطاء ، فظهر داخل الخابية طفلة تحمل ملامحها . حدقت فيها بذهول وقالت إن هذه الطفلة هي حفيدتها التي تنتظر في المستقبل . تنتظر أن تأتي إلى حاضر لم يحضر بعد . تأملتها من خارج الخابية كما تتأمل الأم جنينها عبر كاميرات خاصة .

أشرق وجهها بعد تجهم . وانبسط بعد انقباض. السلطان

داهية. انه يعرف نقطة الضعف عند كل إنسان ، فيتسلل منها إلى قلبه . هذه رسالة . إنه يقول إنكما سترزقان بطفلة تشبهني. ولابد أن أزورها .

حضنت أمي الخابية كما تحتضن حفيدتها التي ولدت لتوها . خاطبت صورة الحفيدة قائلة :

- سأزورك .. يازرقاء . لن أزور أباك وأمك . لكنني سأزورك في بيتهما ، في سلطنة النوم . " سأسميك أحلام " !

بدأت الخيوط التي تربط بين الجالسين في الصالون تتحول إلى خيوط حميمة . تبدلت الأجواء . سألها مختار إن كان ابراهيم أخبرها أنه التقى به في سلطنة المنام .

- ٤ -

في الخارج اجتمع أزلام الزوج . معظمهم من أقاربه . كان قد وضع عيناً تراقب بيت الأم منذ مدة طويلة . ممنياً النفس بأن مختار وهبة سيزوران الأم ، ولو بعد حين .

بغتة سمعا جلبة في الحديقة ثم دخل الزوج وأزلامه مسلحين بالمسدسات والبنادق الرشاشة .

أمروا الأم وابراهيم بالخروج من الصالة . ثم راحوا يطلقون وابلاً من الرصاص على مختار وهبة . سقط كلاهما مضرجاً بدمه . بدأت أم مختار تنوح وتلطم وجهها .. ووقف ابراهيم جامداً كأن الصدمة حولته إلى حجر .

-٥-

أطل الصباح فعثر الزوج على نفسه وعلى أزلامه نائمين في بيت أم مختار . واستيقظت أم مختار ، فرأت الزوج ورجاله ، ينهضون من رقادهم وأسلحتهم معهم . واستيقظ ابراهيم كالتائه .

انتفضوا جميعاً واندفعوا صوب غرفة الضيوف والصالة . لم يعثروا على قطرة دم واحدة على الجدران أو السجادة أو الأثاث . لم يروا أثراً للعاشقين . قال ابراهيم مذهولاً وهو يلتفت إلى الزوج :

- لقد قتلتهما في يقظتك . كان عليك ، لو كنت ذكياً فعلاً، أن تقتلهما في المنام . فقد كانا يلمان بعالمنا أثناء اليقظة ، كما نلم نحن بسلطنة النوم أثناء النوم .

ملحق

وهكذا تداخلت الفواصل واختلطت الأوراق وامتزجت الروايات . فالأسطورة حلم جماهيري ، أما الحلم فهو أسطورة ذاتية فردية . والعالم الواقعي ملعب العلماء ، أما عالم الحلم فملعب الشعراء والفنانين والمبدعين .

إذن ، لقد استيقظت الأحلام . وبدأ الرواة يتحدثون عن يقظة حلم ، لا عن حلم يقظة ، وجعل الرواة يروجون بين العشاق لسلطنة المنام من حيث هي ملجأ للعشاق الذي ضاق الواقع بهم . وفي خضم كل هذه التطورات نسي الرواة على اختلاف مشاربهم وألوانهم ومذاهبهم وضع نهاية واقعية لهذه الرواية . وأجمعوا ، لأول مرة ، على أن عالم الحلم مسير ، إذ يقف الحالم أمام ما يحدث له عاجزاً . ومع ذلك لم يتفق الرواة على موقع الحرية أو الارادة أو قدرة الاختيار أو قدرة الفعل والتأثير بين أحلام تستيقظ فتتبدد

حريتها وتدخل نطاق قيود وقواعد ومنطق وقوانين عالم غريب مألوف معاً من جهة ، وحقائق تنام وتطمس ويمحوها النسيان فيعبث بها الرواة بلا هوادة .

وهكذا! انتهت كل الروايات على اختلاف مصادرها ، ولم تنته الأحلام التي استيقظت . فالروايات عابرة والأحلام اليقظة خالدة لا نهائية !

في خدمة الثقافة العربية

روايات وقصص صدرت حديثاً

أعمال مؤنس الرزاز الصادرة عن
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عصابة الوردة الدامية
حين تستيقظ الأحلام
سلطان النوم وزرقاء اليمامة
فاصلة في آخر السطر
الشظايا والفسيفساء
مذكرات ديناصور
متاهة الأعراب في ناطحات السراب
جمعة القفاري
أحياء في البحر الميت
اعترافات كاتم صوت
الذاكرة المستباحة
النمرود
من روائع الأدب العالمي
آدم ذات ظهيرة
حكايتي مع الطبيعة
قاموس المسرح

حين تستيقظ الأحلام

وهكذا تداخلت الفواصل واختلطت الأوراق وامتزجت الروايات. فالأسطورة حلم جماهيري، أما الحلم فهو أسطورة ذاتية فردية. والعالم الواقعي ملعب العلماء، أما عالم الحلم فملعب الشعراء والفنانين والمبدعين.

إذن، لقد إستيقظت الأحلام. وبدأ الرواة يتحدثون عن يقظة حلم، لا عن حلم يقظة، وجعل الرواة يروجون بين العشاق لسلطنة المنام من حيث هي ملجأ للعشاق الذي ضاق الواقع بهم. وفي خضم كل هذه التطورات نسي الرواة على اختلاف مشاربهم وألوانهم ومذاهبهم وضع نهاية واقعية لهذه الرواية. وأجمعوا، لأولٍ مرة، على أن عالم الحلم مسير، إذ يقف الحالم أمام ما يحدث له عاجزاً. ومع ذلك لم يتفق الرواة على موقع الحرية أو الارادة أو قدرة الاختيار أو قدرة الفعل والتأثير بين أحلام تستيقظ فتتبدد حريتها وتدخل نطاق قيود وقواعد ومنطق وقوانين عالم غريب مألوف معاً من جهة، وحقائق تنام وتطمس ويمحوها النسيان فيعبث بها الرواة بلا هوادة.

وهكذا انتهت كل الروايات على اختلاف مصادرها، ولم تنته الأحلام التي إستيقظت. فالروايات عابرة والأحلام اليقظة خالدة لا نهائية!

97

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي
هاتفاكس: ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١